التجسس على عصر مبارك



تأليف
عبد الله كمال

التجسس على عصر مبارك

تأليف
عبد الله كمال

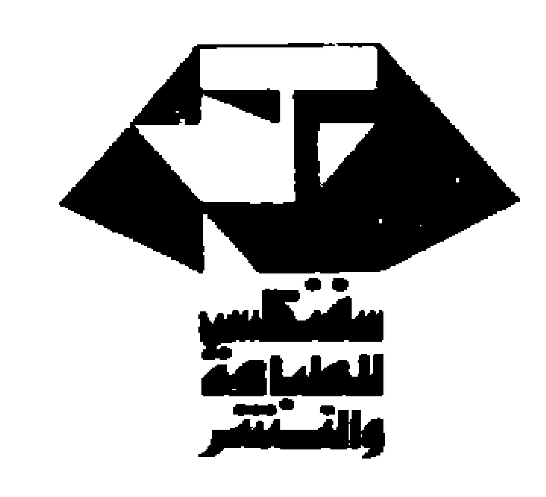


الغلاف للفنان

عمرو فهمى

الطبعة الأولى

يناير ١٩٩٥



دار سفنكس للطباعة والنشر والتوزيع
٧٦٠٢٨٥ - ٧٦٥٧٤٢ - ٣٩٢٨٥٦٩

الإهداء

إلى غدير «مرة أخرى»..

فلن تكفي إهداءات كتب الدنيا كلها !

عبد الله

دعـــوة

هذه الدار

هى دار نشر حرة تعتبر ملتقى لكافة الكتاب المصريين والعرب من مختلف الاتجاهات الفكرية والسياسية والقومية .

وهى تدعوهم جميعا لكى تنشر آرائهم وأفكارهم وميولهم واتجاهاتهم الفكرية المتباينة دون حظر أو إضافة أو تعقيب .

وهذه الدار مستقلة تماما لا يقودها تيار محدد وإنما يحدوها الأمل فى أن تكون مركز إشعاع فكرى مستنير ومؤثر لخدمة وطننا وعالمنا العربى الحبيب .

« الناشر »

الفهرس

الفصل رقم صفر

تقرير مخابرات
عن نوم الصعيدى مع زوجته!

ظهرت على الشاشة كلمة «سرى» .

وجاء صوت المذيع «هذا هو حسنى مبارك» . وتلى ذلك موسيقى وألوان ، ثم صور ومشاهد من القرية الصغيرة التى ولد فيها الرئيس المصرى فى محافظة المنوفية .. كفر المصيلحة» .. ومضى الفيلم يقدم تفاصيل اكثر عن الرئيس الذى تولى الحكم فى القاهرة بعد اغتيال الرئيس السادات عام ١٩٨١ .

ولم يكن هذا الفيلم سوى تقرير أعد لشخص لا يفضل القراءة ويحب أن يشاهد الافلام والمسلسلات أكثر .

ولم يكن منتج الفيلم سوى جهاز المخابرات الأمريكية .

ولم يكن الرجل الذى لا يفضل القراءة ولا يطلع على التقارير سوى الممثل السابق ، الرئيس الأمريكى -السابق أيضا- رونالد ريجان .

كان التقرير المصور أمرا عاديا ، ويعتبر من الأمور الروتينية التى تقوم بها أجهزة المخابرات فى كل يوم .. عندما يتولى رئيسا جديدا موقعه . لكن المخابرات المركزية كانت فى الواقع تقوم بعمليات أخرى على أرض القاهرة فى تلك الأيام الساخنة بعد أن صدمت - إن لم تكن فوجئت - باغتيال الرئيس أنور السادات . كانت قد ركزت اهتمامها بدرجة بالغة على التجسس على حكومة السادات واختراقها . وأفرطت فى تحذير السادات من القوى الخارجية ، بينما تجاهلت العوامل التى تطبخ داخل المجتمع .. حتى قتل ، ووجدت المخابرات الامريكية نفسها تقترب من نفس السيناريو الايرانى عندما قامت ثورة الإمام الخمينى .. ووصل الأمر الى حد أن «وليم كيزى» رئيس السى أى إيه كاد يصاب بأزمة قلبية (*)

قبل ذلك بفترة قصيرة كان «كيزى» نفسه يتسلم عمله من «سلفه» «تيرنر» ويستمع الى تقرير شامل عن أوضاع جهاز المخابرات الأمريكى فى العام . فى هذا التقرير جاءت سيرة مصر بالطبع . وقال «تيرنر» لزميله أمام الرئيس ريجان إن وكالة المخابرات المركزية ووكالة الأمن القومى أخضعتا مصر للمراقبة الالكترونية .. فضلا عن عملاء «من القاعدة الى القمة» .. و .. «من الناحية العملية فإن الرئيس السادات يعتبر كما معروفا بالكامل للخابرات والحكومة الأمريكية» .

وقد ورث «كيزى» هذه التركة .. لكنه فوجئ بالاغتيال .. ولأنه لا يريد مفاجآت أخرى مضى يتابع عملية التجسس .. كان يريد مزيدا من المعلومات .. ومزيد من القنوات الأكثر اتساعا .. وكان يقول «يجب ألا تكون هناك أية حدود فى مجال جمع المعلومات السرية ».. ثم أصدر أوامره قائلا : «ادفعوا بعض الناس فى الشارع ليروا ما إذا كان أحدا فى سبيله لإطلاق النار على مبارك» !

وقد كانت المعلومات تنهال من كل حدب وصوب ..

وكانت العيون فى كل زاوية من زوايا المجتمع ..

وكانت العمليات تنفذ بشكل يومى .. ويقوم بها الصحفيون والباحثون والمراكز والشركات قبل الجواسيس الذين لا يعرفهم أحد .. ويخترقون بها كافة معايير الأمن ، وجميع ما يقال عن الصداقة .. بحيث أن المرء يعتقد -فرضا- أن التجسس الأمريكى على مصر صار أقوى وأكثر

(*) الحجاب بوباده درارد .. دار سيناء ص ١٨

اتساعا فى عهد التحالف عما كان عليه فى عهد العداء !

وقد كنت أحاول جمع مادة هذا الكتاب ورسم صورة لأشكال هذا الاختراق بالاعتماد على مصادر متاحة للجميع .. عندما فوجئت بأننى ربما كنت أحد الذين قدموا المعلومات ، دون أن أدرى ، وبتصريح رسمى من الدولة ، وتحت اشراف أساتذة من المفترض أنهم محترمون ، وبالاشتراك مع عشرات آخرين من الشباب فى مثل سنى .

حدث هذا فى عام ١٩٨٦ .

كنا حوالى خمسين طالبا من أقسام كلية الاعلام المختلفة ، نجلس فى احدى صالات الطابق الثانى عشر بمؤسسة صحفية كبرى ، حيث نستمع للتعليمات الأخيرة من أحد اساتذة الكلية . كان يقول : «هذا البحث هام للغاية .. من الضرورى أن ننقل كلمات الناس كما هى .. علينا أن نتوزع فى جميع أنحاء القاهرة .. وأن نقابل أفرادا من جميع الفئات .. يجب أن تكون الاجابات ممثلة لكافة الاتجاهات فى المجتمع».

وكان كثيرون منا بدون خبرة فى هذا المجال ، وكان أغلبنا قد جاء الى هذا الاجتماع بعد أن جرى وراء المشرف على البحث لعدة أسابيع حتى يوافق على أن يضمه لطاقم العمل .. وعندما أنهينا اختبارات نهاية العام ظللنا نطارد المشرف حتى أخبرنا بموعد الاجتماع .. وقتها ابتسمنا وفرحنا ، واستدعينا جدول الضرب ، وحسبنا المكسب فكان ١٢٥ جنيها خلال اسبوع .. دون أن ندرى أننا نقلب فى أحشاء المجتمع ونجمع المعلومات لصالح من لا نعرفهم .

كان كل شئ يتم فى العلن . وحتى يطمئن قلب كل واحد فينا ، أجاب المشرف على سؤال لم يطرحه أحد ، فقال لو أنكم صادفتم أحدا سألكم عن البحث أو ما تفعلونه .. لا تخشون شيئا ، إن معنا تصريحا مختوما من جميع الجهات المسئولة ، وعموما لو حدث هذا فإن عليكم أن تبلغوه فقط برقم تليفونى حتى نريه التصريح .. ثم لا تنسوا أن رقم التصريح مكتوب فى بداية الاستمارة

لكنه ضحك وهو يضيف : أغلب الظن أن أحدا لن يسألكم !

إن هذا ما حدث فعلا .. لم يسألنا أحدا ، انطلق جيش جامعى المعلومات الى الشوارع دون أن يعوقه شخص واحد ومضينا نسأل الناس دون أن يرفضوا الاجابة نكتب الاسماء وعدد أفراد الاسرة ورأى المواطنين فى الجرائد ، وكتاب المقالات ، وما يشاهدونه من برامج ، وما يسمعونه فى الاذاعة .. ومن الذى يصدقونه ، ومن الذى لا يؤمنون بما يكتب ، لكنهم يقرأونه ، وما هو عدد صحف الصباح التى يشترونها ... ألخ .

كنا نعمل بمنتهى الجدية ، لاسيما وأن هناك مرحلة أخرى من البحث سيضاف فيها الى أجورنا بدل الانتقال الى محافظات أبعد من العاصمة .

فيما بعد عرفت أننا لم نكن نعمل لوجه الله والوطن .. وأننا وقعنا فى أيدى فريق غرق فى أموال البحوث ، وعبأ الوف الاستمارات تحت رعاية الدولة ومركز تنظيم الأسرة ووزارة الصحة ووكالات الاعلان .. وقدم المعلومات لكل من يقدم تمويلا للبحث ، سواء كانت منظمة الصحة العالمية أو المانيا أو فرنسا أو أمريكا لم نكن نعرف اننا نستخدم فيما يمكن أن نسميه بعملية تجسس اجتماعى واسعة ، تحت ستار الأبحاث .. لم نكن نعرف اننا أفراد فى جيش طويل دفعت له خلال السنوات الأخيرة مائة مليون دولار ليقدم هذه المعلومات تحت غطاء علمى مؤدب .. يبدو

أن هدفه نبيل ، لكنه في الواقع يمد يده في أحشاء الدولة ، يكشف اتجاهاتها ويقلب افكارها ويعبث بآرائها في هدوء.(*)

كنا فقط نبحث عن الجنيهين ونصف الجنيه ثمن ملئ الاستمارة ، ونعجب للغاية بالمشرف على البحث الذي افتتح مركزا لهذه الابحاث بالاشتراك مع زميل أخر له .. سرعان ما انفصل عنه .. وكنا ننظر الى أموال «تنظيم الأسرة» باعتبارها لقمة طرية للباحثين من أمثالنا ، ونتمنى أن يرضى عنا الدكتور لنشترك معه في أبحاث الاعلانات السريعة القصيرة التي يمكن عن طريقها أن نقابل افرادا من العائلات الراقية فنسألهم عن آرائهم في أنواع السيراميك والعطور ومعاجين الأسنان ومساحيق الغسيل .. وبالمرة نعبأ أيضا بيانات عن حجم الدخل وعدد أفراد الأسرة والوظيفة وعدد أجهزة التليفزيون التي يملكها ..

لم يكن أيا منا يدري أن الدنيا قد تغيرت وأن الجواسيس الذين نقرأ عنهم في الكتب صاروا نماذجا متحفية لا قيمة لها في أحوال كثيرة وأن التخابر لم يعد فقط هو البحث عن سر عسكري أو سياسي .. فتلك معلومات متاحة بطرق عديدة ولكنه أصبح من نوع أخر يمد يده في معدة المجتمع قبل أن يتصنت على الرئيس . ويعيش في أزمة منشية ناصر قبل أن يتجسس على الجيش ويعبث في نوادي ميت عقبة قبل أن يصور الخرائط بالأقمار الصناعية .

إن أجهزة التخابر لم تعد مضطرة لأن تغامر في كل الأحوال برجال يمكن أن يسقطوا فجأة في أيدي أجهزة التخابر المضاد طالما انها في نفس الوقت تستطيع أن تحصل على ما تريد من أحشاء أي دولة بأيدي أبنائها ، وبتصريح رسمي من جميع أجهزة هذه الدولة وتحت رعايتها ..

لكنني لا أعرف لماذا اضطرت المخابرات الاريكية لأن تجند جاسوسين يقومان بعمل من هذا النوع بعيدا عن الصيغة الرسمية والقانونية ، وبحيث فاحت رائحتهما الى درجة أن مصر اضطرت لأن تطرد الضابط الأمريكي المسئول عنهما الذي كان يتمتع بغطاء دبلوماسي يحميه !

إن هذا السؤال محور هذا الكتاب رقم (١) ، وقضية يقدمها بالتفاصيل المدعمة بالوثائق -ويحاول أن يناقش لماذا كان الجاسوسان من أبناء المهجر .. ولماذا هما من الأقباط .. وهل تقصد أمريكا أن تلعب بهما في بئر الفتنة الطائفية .. أم أنها كانت بذلك تنفذ أوامر وليم كيزي «إدفعوا ببعض الناس الى الشارع حتى نعرف إذا كان هناك شخص ينوي اطلاق النار» ؟

تلك بعض من أسئلة القصة التي تكشف لأول مرة في الفصل الثاني من هذا الكتاب .

وبجانب الاسئلة هناك معلومات أخرى مثيرة موثقة عن لعبة التجسس التي تتم كل يوم .. وعن الناس الذين يفتحون أعينهم في كل صباح ليرزقوا من أموال المخابرات .. إنها كذلك معلومات عن أشكال متنوعة من التجسس المستتر الذي يتم في مصر الآن بتمويل من الولايات المتحدة الأمريكية ومراكزها العلمية وشركاتها الدولية . وقد كان من المثير أن الصدفة الزمنية جعلت من تلك الشركات والمراكز تعمل في مصر في عهد الرئيس مبارك .. وكأنها وجدت التربة الملائمة ، وكأنها لا تنموا إلا في أيام الانفتاح « على الآخر» ، وكأنها تستفيد من كل ما يحدث من تحول في المجتمع .

لقد سُمح للجميع بأن يعمل ..

(*) تحدث الاستاذ محمد حسنين هيكل مستخدما هذا الرقم وسط هوجة وأزمة كبرى بسبب مؤتمر الأقليات الذي نظمه مركز إبن خلدون في مايو ١٩٩٤ .

ومن بين هؤلاء صاحبة مركز دراسات مصرية يقال أنها تحمل الجنسية الكندية .. لكنها تعمل دائما بتمويل أمريكى . وقد مولت بحوثا كثيرة ، كان أطرفها عن أطفال قرية مصرية لا يعرف اسمها أحد .. ربما لا يعرفها سوى الذين يعيشون فيها . إنها فى قلب سوهاج .. فى عمق الجبل . ورغم ذلك وصل إليها الباحثون .. وهم بالطبع مصريون .. معهم جميعا تصريحا رسميا من الجهاز العام للتعبئة والاحصاء ، الذى أخطر بالتالى الجهات الأمنية المسئولة . وبعد أن طبعت الاختام على أوراق بلا قيمة علمية ، دارت عجلة التجسس العلمى تقلب فى كل شئ .. كافة التفاصيل ، وجميع القصص والحكايات التى يتبادلها الناس حتى لو كانت فى غرف النوم .

ووصلنى هذا البحث .

وصلتنى الأوراق الأصلية ، وليست الصورة التى تسلم مشوهة للحكومة المصرية .

كان غريبا أن يكون عنوان البحث هو «محلول معالجة الجفاف» .

لكن التفاصيل تتجاوز حدود اسهال الاطفال بكثير .

لقد كتبت الباحثة يوميات تفصيلية ، اعتمدت فيها على المنهج الأنثروبرلوجى الذى ينقل كافة التفاصيل عن : طريق التفكير ولون الجلباب الذى يلبسه الطفل ، وعدد الذبابات التى تتجول فوق وجهه .. ولهذا فهى سجلت ملاحظات عديدة مثل : «مما هو لافت للنظر أن نساء يفوق عمرهن الستين عاما يتحدثن عن أعراض حمل ، وقد ضحكت الطبيبة مع احداهن وقالت هذا مستحيل .. يا ست انت قطعت من زمان . فردت العجوز أبدا ده أنا عامله اشعة وبيقولوا ان فيه سقط» !

وسجلت أيضا :

« قابلت الدكتور عبد العزيز ، وقلت له ان هناك حالات اسهال كثيرة فى البلد اليوم لأن الناس «بيلحسوا و أولادهم المرق» .. فضحك وقال : ما هو ده اليوم القومى للقرية» .. يأكلون فيه اللحم ويخبزون ويستحموا ويعملوا كل حاجة علشان سوق السبت» .

و ..

«قالت لى بخيتة أن الدكتور عبد العزيز يقوم بعمليات التسقيط . وفى يوم وأنا أجلس معه فى الصيدلية سألته فقال «السقوط هنا بسبب الانجاب غير الشرعى» .. وتراجع قائلا : انا عمرى ما عملت عملية السقوط دى .. حتى لو جوزها عارف .. وحكت لى بخيتة كيف كانت إحداهن تصرخ وهويقوم بعملية التسقيط ، وكان يرد عليها قائلا : وإشمعنى جوزك ما صرختيش منه» .

وكان لافتا أن يهتم بحثا عن الاسهال بمثل هذه الأمور ، وأن تسجل الباحثة ملحوظة من هذا النوع الجنسى ، ولكن الغريب أن البحث ضم أيضا اسماء «الدايات» فى القرية وكيف تقوم كل واحدة منهن بعلاج الاطفال .. تقول الباحثة : «توجد ١٢ داية بالقرية مقيدات بالوحدة الصحية ، وجدتهن جميعا ينصحن العائلات ، والنساء يسمعن لهن بكل ثقة .. كانت إحداهن تقول : اللى عنده مغص كبير أو صغير يغلى شيح ونقطة ليمون وسكر ويشربه ويروح على طول المغص» .

ومن الوحدة الصحية الى المدرسة : «والمدرسة الاعدادية تلزم جميع البنات مسيحيين ومسلمين بارتداء غطاء الرأس ، وهى مدرسة مشتركة .. ولكن المجلس المحلى أخذ موافقة بفصل البنين عن البنات .. أما المدرسة الابتدائية فتلزم البنات بارتداء مريلة ، والبنين بالترينج ، وفى المدرسة الثانوية للبنات حرية الاختيار بين غطاء الرأس من عدمه لأنها فى المركز» .

وتسجل ملاحظات أخرى كلها ذات طابع سياسي بعيد تماما عن الاسهال : « مازال الناس هنا يحتفظون بصورة الزعيم عبد الناصر سواء في بيوتهم أو في المكاتب .. والشوارع تحمل اسم جمال عبد الناصر وأحمد عرابي ويتحدث أهل القرية عن «الجسر» وهو طريق مرصوف طوله ٢ كيلو متر» .

وتمضى الى قلب الحياة : «قال لى أحد المدرسين أنه فى أثناء تعيينه بأحد المدارس الابتدائية كان مضطهدا من الناظر وأن الفراش كان يأخذ له حقه .. لأن الناظر كان عبدا عند عائلة الفراش ، وقال المدرس : بعد العمل كان الفراش يلبس ويتعايق والناظر يقوم بخدمته ويملى عليه الفراش أوامره . وأضاف : إن قريتنا كلها أسياد ماعدا واحده فقط هى«بهية العبدة» .

وهكذا إذن تحصل أمريكا على المعلومات التى لا تقدر بثمن عن المجتمع من الداخل ، وتصلها تفاصيل قد لا تكون موجودة لدى الحكومة المصرية نفسها ، ولكن الغريب أن نسخا من هذه الأبحاث تسلم للجهات المصرية التى صرحت بها .. لكنها تتحول الى مجموعة أوراق بلا قيمة لا يستفيد منها أحد .. فى حين تقوم الجهات الأمريكية بتفريغ البيانات وتحليلها واتخاذ القرار على أساسها .

وقد بدأت قصة هذه الأبحاث بعد توقيع اتفاقية السلام بين مصر واسرائيل عندما أصبحت مصر على البحرى .. وكانت البداية تحت جناح الحكومة ، بمعونة المانية ، وفى إطار هيئة الاستعلامات التى أنشأت ما يسمى بمراكز النيل ، ووزعتها على مناطق من القاهرة الى الاسكندرية ومن العريش الى الواحات .. وكان الممول الألمانى مؤسسة اسمها «هانز زداين» .. وكان من الرسمى والروتينى أن تدعو عددا من العمال و الموظفين الى ندوات فى تلك المراكز .. يسمعون فيها عدة محاضرات ، ويحصلون على مكافأة فى نهاية كل يوم .. ثم يجيبون عن الأسئلة فى نهاية كل برنامج .

وقد أشرف على هذه المراكز شخص ألمانى ، قيل انه اسلم ، وأسمى نفسه ابراهيم ، وتزوج من مصرية لينزرع فى المجتمع المصرى حتى النخاع .. وقد ظل الدكتور ممدوح البلتاجى رئيس هيئة الاستعلامات السابق ووزير السياحة الحالى يردد تلك القصة على أنها طرفة .

وبمضى الوقت اكتشف الأمريكان أن هناك انجازا ألمانيا يتحقق ، فدخلوا بكل ثقلهم وراء نفس الأبحاث فى جهات أخرى ، أغلبها تهتم بالسكان والدراسات الديموجرافية . وقال لى باحثون أن أى دارس جامعى يقوم بأية دراسة عليا عن السكان يحصل من هذه الجهات على منحة علمية فورا . والمثير أن واحدة من تلك الجهات تشرف عليها امرأة لبنانية ، هى فى نفس الوقت زوجة أستاذ اجتماع بالجامعة الأمريكية ، ويشرف على مركز دراسات أثار ضجة كبرى بسبب مؤتمر عن الطوائف قليلة العدد فى المجتمعات العربية .

وفى حين بدأ السباق بخسائر أمريكية .. انتهى الأمر الى مكاسب عديدة ، وقائمة طويلة من المؤسسات التى تقوم بأبحاث اجتماعية وسياسية .. وصار من اللافت للنظر أن سنوات الثمانينات شهدت نشاطا مزدهرا لعدد من المراكز الأمريكية التى تملك أفرعا ومقرات فى القاهرة.

وتلك القائمة تضم المركز الأمريكى للمعلومات فى مصر الجديدة . والجامعة الأمريكية . ومركز البحوث الأمريكية فى شارع قصر الدوبارة ، وهيئة المعونة الأمريكية ، ومؤسسة رائد ، ومعهد

ماسا شوتس ، ومعهد الـ إم . أى . تى وفرع موسسة روكفر .. وكارينجى ، ومعهز دراسات الشرق الأوسط ، ومعهد التربية الدولية المتخصص فى منح السلام ، ومعهد برورتنجر ، ومعهد المشروع الأمريكى ، الاكاديمية الدولية لبحوث السلام ، ومشروع ترابط الجامعات المصرية الأمريكية .. ومؤسسة فورد فونديشن .

والمؤسسة الأخيرة لها ممثل فى مصر اسمه «همفرى ديفيز» قال أن اكبر الجهات التى تمنح أموالا -لما أسماه- مشاريع التنمية هى هيئة المعونة الأمريكية .. فهى تقدم ٢٠ مليون دولار لتلك الأغراض ، فضلا عن ١٥ مليونا أخرى قدمتها فى ثلاث سنوات بداية من عام ١٩٨٧ أما فورد فونديشن فقد قدمت ٥٠٠ ألف دولار لدراسة موضوع «الفقر فى المدن» -أى اجراء أبحاث عن المناطق العشوائية فى المدن الكبرى ، وما يشمله هذا من دراسة للاتجاهات التى تروج بين هؤلاء الفقراء .. وفى المقابل خصصت ٢٩١ ألف دولار لدراسة الفقر فى الريف وتحت بند التحول لنظام «السوق الحرة» قدمت فورد ١٩٥ ألف دولار و ١٨٥ ألف دولار للمركز العربى للتنمية وأبحاث المستقبل و ٤٠ ألف دولار لاتحاد المحامين العرب و ٥٠ ألف دولار لأكاديمية الشرطة .. و ٥٠ ألف دولار للجمعية المصرية للخصوبة ومائة ألف دولار لمركز تنمية الاتصال لتقديم أبحاث اجتماعية ومعلومات عن قضايا السكان .(*)

إن كل هذه الأموال تتحول الى أوراق معبأة بالمعلومات فى أرشيف المؤسسة الأمريكية .

وليست صدفة اذن أن نفاجئ بباحثين تابعين لهذه الجهات فى جميع مناطق الفقر والكوارث الاجتماعية .. فى تلك الأحياء التى يعيش فيها الناس تحت خط الحياة ، يعانون من كافة المشاكل .. ثم فجأة تنفجر تلك المناطق ، وتصبح فى نقطة الضوء .

لقد حدث هذا مثلا فى إمبابة حيث أجريت دراسة عن تحسين الخدمات فى مستشفى الحميات ، وأعدت استمارات ، سئل فيها الناس عن تصوراتهم وعن اسمائهم ووظائفهم وأعمارهم ودخولهم وعدد الأبناء .. ومعلومات كثيرة غيرها وصلت الى حد السؤال عن نوع وسيلة المواصلات التى يستخدمها سكان حى امبابة .

كان هذا فى عام ١٩٩١ .

وقد انفجرت أحداث إمبابة فى عام ١٩٩٣ . وبالطبع فإن هذا لم يكن يعنى ترابطا وثيقا بين الأمرين ، لكنه كان لافتا للنظر خاصة وأن نيابة إمبابة حققت فى عام ١٩٩٢ مع اثنين من الايرلنديين الذين كانا يروجان للتبشير من وراء ستار توزيع الأدوية والمعونات على الفقراء .

والمعنى انه إذا لم يكن هناك دور للأجهزة التى تدير الأبحاث فإنها كانت تعرف أن شيئا ما سوف يحدث .

وإذا كانت أحداث إمبابة صدفة فإن اكتشاف وسائل الاعلام لحالة الرخاء التى تعيشها أجهزة التبشير فى منشية ناصر عندما سقطت صخرة المقطم فى نهاية عام ١٩٩٣ .. قد لا يكون صدفة هو الآخر .

إننا إذن نضع أيدينا على نقطة جديدة فى ملامح التجسس الذى لا يستخدم الحبر السرى وأجهزة التصنت والرسائل التى تعبأ فى مناطق غير معروفة .. إننا نتابع هنا عملية وضع المتفجرات فى قلب المجتمع بأيدى الأصدقاء .

(*)وزاليوسف – كم دفعت «فورد» الأمريكية للباحثين المصريين -خالد داود- ١٩٩٤/٧/١١

حدث هذا فى عام ١٩٩٢ ، كانت الولايات المتحدة تقوم بجهود عديدة لمساعدة مصر على اسقاط جزء من ديونها ، بينما كان هناك تنظيم أمريكى يختفى وراء شركة بترول(*) ومن هنا بدأ هذا التنظيم اللعب فى أحشاء عقول الناس .. يحاول العبث بعقيدتهم ويمد أصابعه فى المنطقة الخطرة والمتفجرة .. منطقة الدين .

وكانت القصة قد وصلت الى نقطة النهاية ، نقطة ترحيل المبشرين الأربعة فى مارس١٩٩٣ ، لكن القصة كانت قد بدأت بشكل مختلف ، وبالتحديد فى عام ١٩٩١ .

وعموما فإن هناك شركات أمريكية داخل مصر تعمل وكأنها جهاز كامل لجمع المعلومات من قلب أحشاء الحكومة المصرية ، وأمام أعينها .. وهى شركات تؤكد مرة أخرى أن الجاسوس لم يعد هو الرجل السرى الغامض أو ذلك الجاسوس الذى يحاول أن يصنع علاقة مع رجل جيش أو لواء شرطة ، وإنما قد يكون شخصا معروفا ، أو باحثا أنيقا ، يعمل فى النور ويقدم تقريرا لحكومة الدولة التى يلعب على أرضها قبل أن يقدم نفس التقرير ويمزيد من التفاصيل للجهاز الذى يعمل معه .

دعونا نضرب مثلا .

فى أحد المبانى الفاخرة التى تطل على كورنيش النيل فى بولاق قابلت مدير شركة أمريكية كبرى فى مصر . لقد كان هذا فى نهاية عام ١٩٩٣ .. وكانت المناسبة الحديث عن جسر يربط بين مصر والسعودية .. جسر يمر فوق البحر الأحمر . وفى اللقاء اكتشفت أن الشركة موجودة فى مصر منذ زمن طويل .. تأسست بين مجموعة من الشركاء تضم المركز الرئيسى للشركة فى الولايات المتحدة ، وبنك استثمارى ، ومؤسسات تمويل دولية ورجل أعمال مصرى . وأما الهدف العلنى فهو القيام بأعمال كبيرة فى مجالات المقاولات والبترول والكهرباء .. وأما الهدف الأكبر فهو استقطاب أموال المعونات التى تدفع باليمين ثم تعود بالشمال .. وتوريط الدولة فى مزيد من الديون ، بتوفير تمويل سهل للمشروعات الكبرى .. والحصول على مزيد من المعلومات .. وتفاصيل خطط الدولة .

إنها فى الواقع تضع خطط الدولة بيدها ، تطبخها فى بيتها ، وبالتالى فإن كل شئ فى أدراجها .

وربما توحى اسماء المشروعات التى قامت بها الشركة بمزيد من التفاصيل .

إن اكبر مشروع قامت به الشركة هو انشاء خط لأنابيب البترول ، كاد يعطل العمل فى قناة السويس ويؤثر على دخلها .. ثم انشئت محطات كهرباء كبرى ، وحقول غاز فى مختلف انحاء مصر .. وأخيرا قامت بدور كبير وخطير فى بيع القطاع العام .

والنقطة الأخيرة جعلت الشركة فى قلب ملفات الحكومة ، ترصد أصولها ، وعدد عمالها ، ومصانعها ، وحالة ماكيناتها .. بحجة أنها تقوم بعملية «تقييم» للشركات التى ستعرض للبيع . لقد دخلت الشركة فى مشروع «الخصخصة» بتوجيه من الولايات المتحدة .. وفجأة أصبحت كل الملفات فى أيدى الأمريكان تحت غطاء دراسة الشركة .. وكانت المفارقة أن مثل هذه الملفات لو قدمت لأية جهة أجنبية فى الستينات لكانت كافية لإدخال من قدمها فى قائمة اتهام قضية تخابر كبرى!

(*) تقرير اختبارى نشر للمؤلف فى مجلة روزاليوسف ١٩٩٣/٣/٢٢ تحت عنوان «تنظيم أمريكى لإشعال الفتنة الطائفية.

وهذه الشركة خير مثال على أن التخابر لم يعد معلومة وجاسوس .. إنما أيضا وقيعة وفلوس وديون .. وقد تجمع كل هذا فى مشروع لم يخطر على بال مصر أو السعودية .. إقترحته الشركة ، فشعرت مصر بأهميته بعد أن خلقت الحاجة إليه .. لم تكن الفكرة مطروحة على الاطلاق ، لكن الشركة تطوعت وأجرت دراسات مبدئية ، وقام خبرائها بزيارة مواقع المشروع .. وهى أماكن استراتيجية للغاية ورسموا الخرائط واستطلعوا أفضل نقاط الانشاء .. ووضع كل هذا فى ملف على مكتب كل من الرئيس مبارك والملك فهد تمهيدا لاجراء دراسة أكبر .

وقد تشجع المصريون بالطبع للفكرة ، لأنها مفيدة اقتصاديا للغاية .. لكن السعوديين وجدوا فيها إجترارا لذكرى قديمة قاسية عليهم عندما غزت القوات المصرية فى عهد ابراهيم باشا الاراضى الحجازية . وإعتبروا أن الجسر قد يمهد الطريق للمدرعات المصرية إذا ما عَن للقاهرة أن تقوم بمثل هذا الأمر . لكن الشركة الأمريكية رغم هذا مضت فى طريقها وطورت الفكرة لتضرب عصفورين بحجر واحد ، واقترحت أن يوازى الجسر خط أنابيب جديد ، تغازل به أثرياء النفط فى الخليج من جانب كما غازلت المصريين بفكرة انشاء خط حديدى فوق الجسر ، يمكن أن ينقل العمال والبضائع بسهولة أكبر .

وبهذا فإن الفكرة وهى مجرد ورقة فعلت الكثير ..

أولا : اشعلت نار الحقد بين مصر والسعودية لأن جانبا رفض المشروع المفيد للجانب الآخر .

وثانيا : لو أنه تم سوف تستفيد أمريكا من سهولة نقل البترول .. وضرب الاقتصاد المصرى فى أعز ما يملك .. «قناة السويس» .

ولو تم أيضا فإنه ستتقدم لمؤسسات التمويل الأمريكية مقترضا جديدا ، خاصة وأن المشروع يتكلف نحو خمسة مليارات دولار .

وثالثا ، وبالمرة ، تذكيرالمصريين بالخلاف القديم مع السعودية على جزيرة تيران .. التى سيمر بها المشروع .

ورابعا : هناك ملفات كاملة من المعلومات اتيحت للشركة عن مناطق استراتيجية هامة .

ذلك جزء بسيط من شبكة هائلة من المصادر تمتلكها الولايات المتحدة الآن فى مصر .. ورغم ذلك فإن أجهزة الأمن الأمريكية تسعى لمزيد منها ، وتوظف العملاء عن طريق اعلانات الجرائد . ففى نوفيمر ١٩٩١ كانت المخابرات الأمريكية قد بدأت حملة كبرى لتوظيف عملاء لها من بين الأقليات الذى يعيشون فى الولايات المتحدة (*)

وقد نشر الاعلان فى مجلة «للسود» .. أظهر أن أمريكا تؤمن بأن الأسود يعرف مشاكل السود أكثر من الأنجلوساكسونى .. وأن اللاتينى يعرف أسرار اللاتين أكثر من الأوربى .. وأن العربى يعرف ما يدور فى الدول العربية أكثر من الأمريكى . وربما بهذه الطريقة جند عماد سالم للتجسس على عمر عبد الرحمن ، وجند مجهولون لكشف محاولات اغتيال الرئيس مبارك فى أمريكا ، وجند ممدوح زكى ليتابع بدقة مجموعة عربية فى نيوجرسى .

وأما القصة الأولى والثانية فموضوع طويل نتناوله بالتفصيل داخل هذا الكتاب .. وأما القصة الثالثة فقد وصلت الى يدى عن طريق خطاب معبأ بكل قصص العمالة ، وقصاصات التجسس .. ما أن فضضت أوراقه حتى كاد يغمى علىّ .

(*) جريدة الحياة -عيون وآذان- جهاد الخازن - ١٩٩١/١١/١٠

إذ قال الجاسوس فى خطابه : اقر أنا ممدوح زكى زخارى جرجس المصرى الجنسية والذى تعاونت مع سلطات جهاز خدمات الجمارك الأمريكية بمدينة تابعة لولاية نيوجرسى فى الابلاغ والتحريات والتسجيلات التى أدت الى ضبط سلطان ابراهيم الجاولى بتاريخ ١٨ ديسمبر ١٩٨٥ فى مؤامرة ارهابية كان الغرض منها القيام بعمليات فى دولة اسرائيل اثناء الاحتفالات بأعياد الميلاد وذلك بالتنسيق والاتفاق والتعاون مع منظمة التحرير الفلسطينية .

ومضى الخطاب يقول : اننى أتراجع عن شهادتى التى أدليت بها أمام المحكمة الفيدرالية العليا بمدينة كاموس وهذا التراجع ناتج عن ضغوط وتهديدات من كل من مسئولى السفارة الأمريكية بالقاهرة والقنصلية الأمريكية بالاسكندرية .

لقد أوعز لى السيد القنصل الأمريكى العام بأن تكون أسباب رجوعى فى الشهادة هو القول بأن هذه القضية ملفقة بالاتفاق بين كلا من جهاز خدمات الجمارك الأمريكى ومكتب التحقيقات الفيدرالية ، ووكالة المخابرات الأمريكية وجهاز الموساد الاسرائيلى انتقاما من المهانة التى لحقت بكرامة حكومة الولايات المتحدة على يد منظمة التحيرير الفلسطينية بسبب خطف طائرة تى . دبليو . اى فى صيف ١٩٨٥ فى بيروت ، ثم اختطاف باخرة الركاب اكيلى لورو .. واستغلال هذه القضية كذريعة لغلق مقر منظمة التحرير الفلسطينية فى الولايات المتحدة .

إن تلك هى قصة الفصل الرابع من هذا الكتاب «جاسوس الاسكندرية» .

وهى أيضا جزء من قصة الفصل الأول «التجسس على الرئيس» .

وهى فى النهاية أجزاء من قصص كثيرة معقدة .

قد يبدو منها أنها ترصد علاقة الاقباط بالتجسس الأمريكى على مصر ..

لكنها ليست كذلك . فنحن نحترم المسيحية ونحترم الأقباط بالتأكيد .

وقد يبدو أنها محاولة لرصد أصابع المخابرات وهى تلعب فى أخطر مناطق مصر .. الدين ..

وهى كذلك فعلا .

وقد يبدو انها تحاول ضبط تجسس الاصدقاء على الاصدقاء ..

وقد يبدو أنها شهادة ضد سنوات سمحت للجميع بأن يلعب بمنتهى الحرية .

ولكننا نقول أن تلك القصص وهذا الكتاب خليط من كل هذا .

عبد الله كمال

حدائق القبة ـ روزاليوسف

يونيو ـ يوليو ١٩٩٤

الفصل الأول

التجسس على الرئيس

«عملية أولاد العاهرة»

فى عام ١٩٨٥ تصنت الأمريكان على مكتب الرئيس شخصيا

وفى عام ١٩٨٧ دق عميل للمخابرت الأمريكية إسفينا بين أبو غزالة ومبارك .. وفى نفس العام اصطادت السفارة الأمريكية فى القاهرة تنظيما يضم رجل مخابرات مصرى سابق وعدد من ضباط الجيش .

وفى عام ١٩٩٣ تجسست المباحث الفيدرالية على عدد من المصريين المعارضين فى نيويورك لإنقاذ الرئيس مبارك من عدة محاولات للإغتيال .

إنها فصول من دراما التحالف ، حيث لا يوجد فارق بين الأصدقاء .. ولا يوجد أمن أيضا .

إننا نعود إذن لبداية القصة .. قبل سبع سنوات ، وبالتحديد فى أكتوبر ١٩٨٥ .. فى هذا الشهر أرسل أحد الأمريكان الهامين فى القاهرة رسالة الى ادارته فى واشنطن يقول فيها : «قل لوزارة الخارجية إننا يجب أن نلاحق أولاد العاهرة هؤلاء .. يجب ألا يخرجوا من مصر» .. كانت الرسالة المعبأة بالوصية تتجاوز كل حدود اللياقة المفترضة فى سفير يلتزم بقواعد اللغة الدبلوماسية . لكن نيكولاس فليتوس فعلها .. وكانت تلك إشارة واضحة لما يعانى منه السفير من مواقف صعبة فى تلك الأزمة التى عرفت باسم « أكيلى لاورو » .

كان يوم اثنين وكانت «أكيلى لورو» هادئة ناعمة ، تختار الأوقات الجميلة للإبحار ، كانت سفينة تحرص على أن توفر لركابها أكبر قدر من المتعة .. وكانت فى إطار برنامجها الترفيهى العادى عندما انطلقت من ميناء «جنوة» الايطالى فى اتجاه الاسكندرية لكى تبدأ المرحلة الثانية من المرحلة .. وبينما كانت نسمات من هواء الشتاء فى البحر المتوسط تداعب أجسام عدة عشرات من السائحين الايطاليين والأمريكان . لم يكن أيا منهم يدرك أن السفينة سوف تصبح بعد قليل موضوع الخبر الرئيسى فى جميع شبكات التليفزيون فى العالم ، وأنها قد تكون سببا فى إنهيار حكومة إيطاليا ، وإحراج الدولة المصرية ، وإعلاء شأن راعى البقر الأمريكى .

ومضى البرنامج وفق ما هو مرسوم فى الخطة التى أعلنتها الشركة السياحية المنظمة للرحلة دون أن يحدث شيئا يمكن أن يعطل سيناريو القدر القادم . وبعد أربعة أيام من الابحار الهادئ المتهادى فى المياه رست السفينة فى الاسكندرية . وفى الميناء أنهيت بسرعة اجراءات السائحين فلم يستغرقوا سوى دقائق معدودة فى الوصول لباصات فخيمة مكيفة كانت فى انتظارهم ليبدأوا مرحلة جديدة من الجولة تنتهى بزيارة الاهرامات وأبى الهول .

فى نفس الليلة وفى نفس الباصات عاد السائحون الى الشمال ، حيث ميناء مصرى أخر كانت السفينة قد انتقلت اليه فى انتظارهم ليسافروا فى مرحلة ثالثة الى اسرائيل .

هنا بور سعيد ..

هنا توقف السائحون بعض الوقت ليتعرفوا على ملامح «المدينة -المحطة» .. لقد أمضوا ساعتين فى الشوارع بينما تتعجلهم تعليمات المرشدين المغلفة فى ابتسامات تحاول أن تبدو حميمية . بعدها عاد الجميع الى مكانه على السفينة ، وتوزع السائحون فى الغرف الفخيمة بسهولة وانسيابية .. خاصة وأن مثل هذه السفن لا تخضع لأية اجراءات أمنية صعبة .. لم يكن بها حتى جهاز لكشف المعادن والمتفجرات ، وبالتالى كان من الطبيعى أن يسكن فى هدوء أربعة مسلحين فلسطينيين فى احدى غرف السفينة بكل ما يحتاجونه لعملية كبرى .. أسلحة وذخائر وقنابل يدوية .

كان الهدف انتحارى .. عملية كبرى فى «أشدود» فى اسرائيل .

وكانت «أشدود» هى المرحلة التالية فى البرنامج .

لكن سيناريو القدر كان يمضى نحو التجسس الأمريكى على مصر .

ففى لحظة من لحظات المرور العادى لأحد خدام الغرف على السفينة طرق «الجرسون» الباب ثلاث مرات .. ولم يرد أحد فى الداخل ، وكان هذا يعنى فى البروتوكول الفندقى أن من حق «الجرسون» أن يفتح الباب -وقد فعل- وليته ما فعل .. فقد فوجئ أمامه بورشة أسلحة .. الأربعة كانو يجهزون أنفسهم لعملية «أشدود» . لكنهم اصيبوا بالذعر .. وتطور الموقف الى خطف الجرسون ، ثم اقتحام غرفة الطعام ، واعتقال مائة مسافر داخلها .

هكذا فى لحظات تحولت عملية «أشدود» الى اختطاف سفينة فى عرض البحر .

وهكذا لم تتوقف السفينة فى الميناء الاسرائيلى ، ورضخت «أكيلى لورو» لأوامر الخاطفين فاتجهت الى الساحل السورى .

كان الوضع فى واشنطن متوترا اللغاية ، خاصة وأن البرقية الأولى التى وصلت من المخابرات الأمريكية كانت غامضة للغاية .. مجرد نص يقول : «ثمة شئ ما يجرى على متن سفينة سياحية ايطالية فى البحر المتوسط .. لقد أرسلوا نداء استغاثة وربما كان فى الأمر هجوم ارهابى .. سنعود اليكم عندما تصلنا معلومات ومزيد من التفاصيل» .

كان التوقيت فى واشنطن بداية ساعات الصباح ..

وكانت تلك البرقيات أول شئ يتلقاه الكولونيل أوليفر نورث -الرجل الأشهر فى وزارة الدفاع الأمريكية فى عهد الرئيس رونالد ريجان .. وكان أول شئ فعله وفق ما قاله فى مذكراته «تحت النار» أن اتصل «بتشارى آلن» خبير شئون الارهاب فى المخابرات الأمريكية .. وقد وجد لديه بعض المعلومات .. قال له : «لقد أخذت وعليها بعض الأمريكيين» ! .

وكان أغلب رجال الادارة الأمريكية يتابع الحادث من خلال تغطية شبكة «س . إن . إن» بينما هناك رسالة موزعة على أجهزة الكومبيوتر تدعو فريق عمل خاص بالارهاب للاجتماع الفورى .. وفى خلال دقائق كان هناك اتفاق على دعوة الرئيس ريجان لأن يسمح لفريق من قيادة العمليات الخاصة المشتركة بأن يذهب الى البحر المتوسط .. خاصة وأن تلك القيادة سريعة الحركة ، وتملك فرقا عديدة للعمليات المميزة .. فضلا عن أنها صغيرة وعالية التدريب وتستخدم كل أنواع التكونولوجيا وتملك مقدرة الوصول الى ساحة العمليات بأى وسيلة ممكنة .

ولم يكن مثل هذا القرار سهلا .

يقول «أوليفر نورث» : «كان معنى هذا اننا سوف نرسل قوات أمريكية للقيام بعمل عدوانى محتمل .. وأضاف : «إلا أنه كان علينا أن نفعل أى شئ .. ونخطط لكافة الاحتمالات ؟

إن هذا ما حدث فعلا فى الاجتماع . لقد طرحت على المائدة أفكارا عديدة .. وصلت الى حد أن فريق الرعونة الأمريكى تصور أنه من الممكن القيام بعملية تشبه مغامرات جيمس بوند ، وأن يتم اقتحام السفينة فجأة ثم يقتل الخاطفون على سطحها . لكن جميع هذه الأفكار كانت تنطلق من قاعدة الوهم .. فليس هناك من يعرف كم عدد الخاطفين ، أو ما هى أفكارهم ، وما الذى يريدونه بخلاف ما أعلنوه عن رغبتهم فى الافراج عن خمسين معتقلا فلسطينيا فى اسرائيل .. لكن هذا لم يمنع فريق العمليات الخاصة من الاقلاع إلى البحر المتوسط تحسبا لكافة الاحتمالات

على السفينة كانت العملية التي لم يخطط لها تتطور بشكل مثير ، لم يكن يتصوره حتى الذين قاموا بها ففي نهاية اليوم الأول حاول الأربعة أن يبعثوا برسالة ذات مغزى لإنهاء الموقف المتأزم بسرعة .. وقتلوا سائحا أمريكيا عجوزا اسمه «ليون كينجهوفر» ، ثم القوا به في البحر أمام الساحل السورى .. وفى ظهر اليوم التالى -الثلاثاء- وقفت السفينة أمام الساحل السورى عند «طرطوس» وطلبوا اللجوء السياسى . لكن واشنطون كانت على الجانب الآخر تحاول أن تقطع الطريق على انهاء القضية بهذه الصورة .. ولهذا كلف السفير الأمريكى فى سوريا بإبلاغ رسالة شديدة اللهجة برفض طلبات الخاطفين .. فأعلن المسلحون بدورهم أنهم سوف يقتلون مزيدا من الرهائن .

كان التوتر قد بدأ يحرق الأعصاب فى واشنطن ، ومما أشعل الموقف هو أن فريق القيادة المشتركة الذى انطلق للبحر المتوسط تأهب لتنفيذ مغامرة عسكرية لم يكن لديه أية فكرة عن موقع السفينة .. خاصة وأن عملية البحث عنها سوف تكشف ، ويمكن أن تؤدى الى تهور الخاطفين وتصعيد الموقف . وهنا تدخلت اسرائيل .. وأبلغ الملحق العسكرى فى السفارة الاسرائيلية بواشنطن الجنرال «أدرى سيمحونى» الحكومة الأمريكية بموقع السفينة بالتحديد . وفهم من المعلومة أن «تل أبيب» كانت تتابع الموقف بدقة منذ بدأت عملية الخطف .. وعندما ضاعت السفينة مجددا من واشنطن ، عاد سيمحونى فى صباح الأربعاء ليحدد مكانها من جديد .. ويقول الكولونيل نورث «إن قدرة اسرائيل على جمع المعلومات السرية عن طريق الأفراد فى الشرق الأوسط تحظى باحترام واسع» .

كان هذا الغموض الذى يحيط بالعملية مرتعا لأجهزة المخابرات والجواسيس .. وحتى تلك اللحظة لم تكن مصر قد ظهرت فى المشهد باستثناء أن السفينة كانت فى الاسكندرية وبورسعيد .. لكن معلومة سربتها هذه الأجهزة دفعت بالقاهرة فورا الى السيناريو عندما أبلغ المتابعون للموقف فى أمريكا أن «أبو العباس» مساعد ياسر عرفات منح من مصر اذنا دبلوماسيا بالدخول الى القاهرة .. عندئذ قال تشارلى آلن خبير الارهاب فى المخابرات الأمريكية «دعونا نراقب هذا الرجل ، لن افاجئ إذا عرفت انه الذى خطط لها» .

ولأن القصة لم تكن تدار بأيدى مصرية ، أو حتى عربية ، رغم أن خاطفى السفينة فلسطينيون إلا أنه لا توجد مصادر عربية ترويها ولهذا فإننا نعتمد على أكثر من مصدر أمريكى فى متابعتها ومن بينها مذكرات «تحت النار» التى يكشف فيها الكولونيل «أوليفر نورث» عن أن الأراضى المصرية - أو القريبة منها- كانت مسرحا لعملية تصنت على السفنية ، عندما عادت ورست فى الاسكندرية .. يقول «نورث» : بمجرد وصول أبو العباس الى مصر بدأ يقوم بدور الوسيط المحايد الذى أرسله عرفات للمساعدة فى حل مشكلة الخطف . إلا أنه عندما أصبحت «أكيلى لورو» فى نطاق ارسال اللاسلكى فى الاسكندرية وبدأ أبو العباس يتفاوض مع الخاطفين حيوه بقولهم «أيها القائد إننا سعيدون لسماع صوتك» .. عندئذ عرفت أن «تشارلى آلن» كان على حق .. إلا أننا لم نكن نعرف أن أبو العباس عقد اتفاقا مع الرئيس المصرى حسنى مبارك ..

هل هذا يعنى أن تلك المعلومة أفلتت من الأمريكان ؟

بالطبع لا .

يقول «نورث» : من خلال الجهاز اللاسلكى شرح أبو العباس للخاطفين أنه إذا ما استسلموا

للمصريين فسوف يصبح مسموحا لهم بمغادرة البلاد بسلام .

فى نفس الليلة خرج زورق بحرى الى السفينة وأوفد المختطفين .

وكان معنى هذا أن خطة الاقتحام التى وافق عليها الرئيس الأمريكى ريجان لكى تتم فى تلك الليلة لن تنفذ .

فى مساء الأربعاء بتوقيت القاهرة قال الرئيس مبارك : «إننا لا نعرف الى أين ذهب مختطفى السفينة .. ربما الى تونس .. إننا عندما قبلنا استسلامهم لم نكن نعلم شيئا عن الجريمة» .. وربما كان يقصد بالجريمة عملية قتل السائح الأمريكى .. خاصة وأن هناك رواية أمريكية أخرى قريبة من المخابرات تقول : فى بداية الأمر لم يكن الرئيس مبارك يعلم بمقتل كيندجهوفر ، ثم عندما عليم بذلك «أدرك أهمية النبأ وأدرك أن الولايات المتحدة ستضطر للقيام بتصرف ما ، وراح يصرخ فى مساعديه طالب أن يعرف لماذا لم يتم ابلاغه على الفور» . «المصدر -بوب وود وارد - الحجاب - الهدف الشرق الأوسط ، الحروب السرية للمخابرات المركزية الأمريكية - دراسة سامى الرزاز ، دار سيناء للنشر ، القاهرة» .

وكان معنى التصريح أن مصر ترفض محاكمة المختطفين الذين تحولوا الى قتلة . ويقول «أوليفر نورث» : صعقت وأنا أقرأ أن الخاطفين غادروا مصر ، قد يكون مبارك لم يكن يعرف حقا بأمر قتل السائح عندما عقد اتفاقا مع منظمة التحرير الفلسطينية .. إلا أنه لا شك كان قد عرف بالجريمة عندما سمح للخاطفين بالمغادرة .. وكان الرئيس ريجان قد رجاه وتوسل إليه أن يحتجزهم ».

واتصل نورث بالملحق العسكرى الاسرائيلى فى واشنطن «سيمحونى» .. فقال له الأخير : «إنهم فى القاهرة حتى الآن» . وكان المعنى الواضح أن المصادر الاسرائيلية فى مصر تعمل بنشاط ، ولهذا لم يجد نورث أى مانع فى أن يطلب من سيمحونى «إبقاءهم تحت المراقبة» .

ولم تكن المشكلة فى معرفة أنهم فى مصر أم لا .. ولكن كانت فى أن يعرف الأمريكان موعد اقلاع الطائرة بالخاطفين من مصر .. وبالتحديد من مطار الماظة .

تقول رواية «بوب وود وارد» : كان مبارك يكره نظام تأمين الاتصالات الصوتية الذى أمدته به الولايات المتحدة ، فقد كان جهاز التليفون مزودا بزر يتعين الضغط عليه أثناء الحديث ، بحيث لا يستطيع الشخص الذى على الطرف الآخر أن يتكلم وهو يستقبل المكالمة . وكان ذلك يجعل من الصعب مقاطعة المتحدث الذى على الطرف الثانى . ولهذا كان مبارك يستخدم أجهزة التليفون العادية . وكانت هناك أوامر بتشديد وزيادة العمليات الأمريكية لجمع معلومات المخابرات فى مصر ، خاصة بواسطة وكالة الأمن القومى والأقمار الصناعية .. وفى وقت مبكر من صباح يوم الخميس العاشر من أكتوبر ، تم التقاط مكالمة للرئيس مبارك ، وخلال نصف ساعة كانت المعلومات قد وصلت الى غرفة العمليات فى البيت الأبيض فى رسالة شفرية سرية للغاية .. وكانت تسجيلا قصيرا لمحادثة دارت بين مبارك ووزير خارجيته» .

كانت المعلومة العلنية أن فريق المختطفين غادر مصر .. لكن محادثة الرئيس كانت تقول شيئا آخر .

يقول بوب وود وارد فى الكتاب الذى نشر داخل مصر فى أكثر من طبعة وعن أكثر من دار نشر : «كان التسجيل يحكى قصة أخرى ، ففى المحادثة التى تم التصنت عليها كان الرئيس يقول

للوزير إن الخاطفين لايزالون فى مصر . وقال صائحا أن جورج شولتز يكون مجنونا إذا اعتقد أن مصر يمكن أن تسلم الخاطفين الى الولايات المتحدة كما تطلب واشنطن . وقال الرئيس مبارك إن مصر فى النهاية بلد عربى ولا يمكن أن تدير ظهرها لأشقائها فى منظمة التحرير الفلسطينية».

أما المثير فقد كان ما دار فى المكالمة الثانية .

كانت آذان المتصنتين «بكل ما معهم من أجهزة تكنولوجية عالية الدقة» ذات حس مرهف .. وكان الصوت واضحا ، وكانت المعلومات ثمينة .. ففيها ذكرت تفاصيل الرحلة السرية .. والتقط الأمريكان رقم الطائرة ونوعها ومكان الاقلاع .. وهكذا وصلت برقية إلى واشنطن تقول ان الطائرة تابعة لشركة مصر للطيران وأن رقمها «بوينج ٧٣٧ ، وأنها سوف تقلع من مطار الماظة الجوى ».

ويضيف بوب وود وارد : خلال فترة ظهر نفس اليوم قدمت وكالة الأمن القومى الأمريكى نصوص عشر مكالمات تم التقاطها لمبارك وهو يناقش الخطة النهائية لنقل الخاطفين .. وبالنسبة لكل من أوليفر نورث وبو نيدكستر –نائب مستشار الأمن القومى– فإن الأمر بدا كما لو أنهما موجودان فى مكتب الرئيس المصرى .

«!!!!!»

وحسب نفس الرواية فإن وكالة الأمن القومى قدمت للبيت الأبيض توقيت وصول الخاطفين الأربعة الى الطائرة ، ورقم الرحلة الجوية ومسار الطائرة فى رحلتها الى الجزائر حيث سوف تتسلمهم منظمة التحرير الفلسطينية .

لكن هناك رواية أخرى حول تسرب المعلومات الهامة من مصر للولايات المتحدة .. إنها مختلفة تماما لكن مصدرها أمريكى أيضا .. وقد وردت فى بحث بالانجليزية عن «الرئيس والمشير» لباحث أمريكى اسمه «روبرت سبرنج بورج» وصفه لى سيد مرعى قبل وفاته بأنه «كادر مخابرات أمريكى». (*)

يقول «روبرت سبرنج بورج» : إن احدى الروايات تزعم أن المشير محمد عبد الحليم أبو غزالة أخبر الولايات المتحدة ربما عبر البعثة العسكرية الأمريكية فى القاهرة أن المختطفين فى طريقهم الى تونس . فأجبرت الطائرات الاعتراضية للأسطول السادس الطائرة المصرية على الهبوط فى صقلية .

وإيا ما كانت الرواية فإن المعلومات تسربت ، وبنى الأمريكان السيناريو التالى بناء على هذا .

بداية وصلت رسالة من الرئيس رونالد ريجان الى الرئيس التونسى الحبيب بورقيبة تطلب منه عدم منح الطائرة حق الهبوط إذا جاءت الى تونس .

وقبل منتصف النهار بتوقيت واشنطن كانت اسرائيل قد أكملت جميلها لأمريكا وزودتها بأنباء مثيرة تقول : «أن أبو العباس هو العقل المدبر للخطة كلها وأنه سوف يغادر مصر جوا بصحبة الخاطفين» .. تلك أيضا تفصيلة من تفاصيل رواية أوليفر نورث المعبأة بكافة معايير الاختراق الأمريكى الاسرائيلى لمصر .

(*) كانت المناسبة مناقشة مع رئيس مجلس الشعب المصرى السابق الراحل حول كتاب أعده المؤلف نفسه عن سيد مرعى تحت اسم «العائلة والسلطة فى مصر» .. وكانت معلومات الكتاب تبدو كما لو أن روبرت يعيش فى بيت مرعى منذ ولد.

وبناء عليه .. أبلغ ريجان بخطة مضمونها أن تقوم طائرات من طراز ف – ١٤ من حاملة الطائرات الأمريكية ساراتوجا تساندها طائرات مراقبة وقيادة وسيطرة من طراز «إى – ٢س» باعتراض طائرة الخاطفين واجبارها على الهبوط فى قاعدة تابعة للحلف الأطلنطى وإيطاليا فى صقلية . وبالطبع وافق ريجان على الخطة .. وقال لمساعديه فى محاولة لاضفاء نوع من الحياء على الخطة «يجب ألا نعرض أى شخص برئ للأذى» .

هنا ، وفى واشنطن ، ثارت مشكلة فى هيئة علامة استفهام : ماذا لو لم يوافق الطيار المصرى على الهبوط فى القاعدة ؟ يقول اوليفر نورث : «لم يكن اسقاط الطائرة فى المياه أحد الخيارات المطروحة» .. ولم يكن هذا يعنى أن أمريكا حريصة على ألا تحرج مصر أكثر مما هو حادث ، ولكن الأمريكان كانوا يرون «أنه حتى لو كان الخاطفون يستحقون الموت فإن هناك طيار ومساعده وربما مسئول أخرعن الرحلة وهؤلاء أبرياء» .

ويقول مهندس العملية ، الذى كان مستعدا لأن يقوم بعمل شبه انتحارى منذ البداية ، أوليفر نورث : كان علينا أن نجعل الطيار يعتقد أنه لا خيار لديه سوى الهبوط . ولهذا اقترحت أن يسمح لمنفذى العملية بإطلاق طلقات تحذيرية بالقرب من مقدمة الطائرة المصرية .

فى غضون هذا كانت هناك تفاصيل كثيرة يتم اعدادها .. ففى مواجهة فريق «رعاة البقر» الذى يريد أن يفعل أى شئ لإثبات هيبة أمريكا حتى لو أضرب بالحلفاء ، كان وزير الدفاع يعترض على العملية من منطلق أنها قد تؤذى علاقة الولايات المتحدة بمصر .. لكن اعتراضات واينبرجر لم تجد من يسمعها ولم يرق لريجان هذا الكلام ..

واعتبر أ ن العمل فى الخطة بدأ ، بينما لم تكن أمريكا قد حصلت بعد على إذن من ايطاليا بهبوط الطائرات وفى نفس الوقت كانت فرقة القيادة الخاصة التى كانت مستعدة لعملية على السفينة نفسها تعود الى أمريكا ، وبينما كانت الطائرات تدير محركاتها لاختطاف الطائرة المصرية ، كان الملحق العسكرى الاسرائيلى فى واشنطن يتفق مع اوليفر نورث على خطة بديلة لهبوط الطائرات مع الصيد المصرى الفلسطينى فى قاعدة عسكرية اسرائيلية .. لكن القدر تدخل ، ووافقت ايطاليا على هبوط الطائرات ، وحفظت السماء بعضا من حياء القاهرة.

على الجانب الآخر كانت طائرة مصر للطيران قد بدأت الاقلاع فى الساعة الحادية عشر والربع قبل منتصف الليل .. وبالطبع فإن الطيار لم يكن يتصور ما يمكن أن يحدث ، ولم يدرب على الظروف التى كتب عليه أن يراها بعد ساعة إلا ربعا بالتحديد وكان من الطبيعى أن يفاجأ وهو بالقرب من جزيرة كريت برفض السماح له بالهبوط فى تونس . وبالتالى انهارت الخطة التى سافر على أساسها كلها .. وما كان منه إلا أن طلب الهبوط فى أثينا فتلقى نفس الرد .

فى واقع الأمر كانت هناك من ملامح عدم دقة فى الخطة المصرية .. وفيما يبدو فإن الحماس للمغامرة لم يكن قويا ، ولهذا فإنه لم تكن أمام الطيار سيناريوهات بديلة .. وبالتالى كانت الطائرة صيدا سهلا لطائرات «ف -١٤» الأمريكية ، التى أطفأت أنوارها على بعد مائة ميل من الطائرة المصرية وبقيت الأطقم الأمريكية تتصنت على الطيار المصرى وهو يتلقى الرفض تلو الآخر حتى حانت اللحظة المناسبة للتدخل .. بينما الطيار يطلب الاذن بالعودة الى القاهرة .

فى هذه اللحظة سمع من كانوا فى الكابينة المصرية رسالة غريبة ومفاجئة!

– مصر للطيران ٢٨٤٣ .. هنا تايجرتيل ٦٠٣ .. حول .

وبالطبع كانت الاجابة على الناحية الأخرى لا شئ ، تعكس حالة من عدم التصديق .. وتكررت الرسالة ثلاث مرات حتى جاءت الاجابة المصرية أخيرا «تايجرتيل ٦٠٣ .. هذه مصر للطيران ٢٨٤٣ تابع » .

وبدأ السيناريو المهين فى شكل أمر أمريكى : «مصر للطيران ٢٨٤٣ ، هنا تايجرتيل ٦٠٣ .. عليكم أن تعلموا أن هناك طائرتى «ف -١٤» ترافقكم .. عليكم الهبوط فورا .. فورا فى قاعدة سيجو نيلا بصقلية .. حول» .

وعندما «حول» الطيار المصرى كان غارقا فى بحر من علامات الاستفهام وعدم القدرة على التصرف ، وقال فى رد مذهول : «أعد ما قلت .. من المتحدث» . وقال الجانب الأمريكى : هذا تايجرتيل ٦٠٣ .. إننى أعلمكم أن المطلوب منكم الهبوط فورا فتقدموا حالا الى سيجونيلا فى صقلية .. ترافقكم طائرتان معترضتان من سلاح البحرية الأمريكية .

كان من الطبيع أن يحاول الطيار المصرى الاتصال بالقاهرة ليعرف ما الذى عليه أن يفعله .. وكان من الطبيعى أيضا أن يتوقع الأمريكيون أن هذا سوف يحدث ، ولذلك أجريت عملية تشويش واسعة بحيث أصبحت الطائرة المصرية محصورة بالفعل فى نطاق الاتصال مع المختطفين الأمريكان فقط .

وتمت العملية .. اختطاف .. مقابل اختطاف !

فى صقلية هبطت الطائرة المصرية ، وحولها الطائرتان الأمريكيتان .. لكن «مصر للطيران» بقيت مقفلة الأبواب ، وأحد محركيها لا يزال يعمل بينما ينتشر حولها رجال القوات الخاصة الأمريكية . وفى البداية رفض الطيار أن يفتح الباب أو أن يوقف المحرك .. كان يحاول أن يقاوم فى وقت لا مجال فيه لذلك عندئذ صعد جنرال أمريكى فوق سلم متحرك وقد اخفى سلاحه وراءه فى محاولة منه لإضفاء نوعا من اللياقة على الموقف .. وفتح الباب .. لكن الطيار لم يخرج .. وخرج بدلا منه كوماندوز مصرى . رافعا رشاشه فى وجه الجنرال الذى قال فى هدوء وثقة : «أنا لا أريدك أنت .. بل أريدهم هم» وبعد لحظات من التردد أخفى الضابط المصرى سلاحه وخرج الخاطفين الأربعة مع «أبى العباس».

وقد كان مثيرا أن تلك الخطة بالكامل لم تنته وفق ما رسمها الأمريكان ، فبينما الخاطفون يهبطون سلم الطائرة كان الدرك الايطالى يحيط بالمختطفين الأمريكيين والفلسطينيين .. ويرفض خروج الأمريكان بالمتهمين .. وكان هناك اصرارا واضحا على أن هؤلاء يجب أن يحاكموا فى ايطاليا .. وكان ذلك يعنى أن هناك دولة انتهكت سيادتها فى الجو والبر والبحر .. وأن هناك دولة أخرى ترفض أن تصبح «طرطورا» .

وربما لهذا السبب ، وفى اليوم التالى ، عندما أصبحت الفضيحة بجلاجل فى مصر كان من الطبيعى أن يشعر المصريون بالإهانة والامتهان .. ولأن الناس لم يعرفوا الجانب الأول من القصة حول تسرب المعلومات ، فإنهم تعاملوا مع الجانب الآخر من الموضوع «اختطاف طائرة مصرية».

وكان الوضع مختلفا تماما فيما بين القاهرة وواشنطن .

كان ريجان فى حالة من النشوة دفعته لأن يقف ويرفع يده بالتحية لأحد منفذى العملية قائلا «أحيى البحرية» . وكان الثناء ينهال على الجميع من جميع الاتجاهات .. من الجمهوريين والديموقراطيين .. وكان «وليم كيزى» مدير المخابرات الأمريكية يتلقى التهانى من الرئيس لأهمية

المكالمات التى تم التصنت عليها وفى المقابل كانت الأوضاع مشتعلة فى الشارع المصرى .. فاندلعت المظاهرات فى جامعة عين شمس وثارت احتجاجات ساخنة فى الجامع الأزهر .. وفى جامعة القاهرة ..

ووسط كل هذا الحرج والامتهان أرسل ريجان نائب وزير خارجيته «جون وايتهيد» الى مصر ، فى محاولة لرأب الصدع .

وبالطبع رؤب الصدع ..

ولكن التجسس لم ينته .

كانت هناك محاولات مصرية عديدة تحاول علاج تلك الثغرة الفظيعة فى «الأمن» .. ويقول بوب وارد وادر أن الرئيس المصرى حسنى مبارك اكتشف بعد اسبوعين جهاز تصنت على تليفون مكتبه . لكن وكالة الأمن القومى الأمريكى كانت لديها أساليب أكثر تقدما ، وظلت بالتالى تحصل على تسجيلات للمكالمات بما فى ذلك مكالمة أجراها مبارك فى وقت لاحق من ذلك الشهر أظهر غضبه الشديد على السوريين لأنهم أعادوا جثة السائح الأمريكى كينجهوفر الى الولايات المتحدة بعد أن القتها الأمواج على الساحل السورى .

إذن هى قصة تصنت على التليفونات ، بما فيها تليفون الرئيس .. وفى بداية عام ١٩٩٤ عادت صحيفة الأهالى الصادرة عن حزب التجمع لتذكر المصريين بمأساة ١٩٨٥ وكتبت خبرا ساخنا عن أن جميع الاتصالات المصرية مخترقة ، لأن التى نفذتها شركة أمريكية .. ولم يحتمل وزير المواصلات المهندس سليمان متولى مثل هذا الخبر ، فنفاه فى صحف اليوم التالى .. لكن ذلك لا ينفى أن الأجهزة الأمريكية تملك بالفعل وسائل عديدة للعمل فى مصر .

وبين حين وأخر ، ورغم عدم تكرار حوادث مثل تلك التى حدثت فى «أكيلى لورو» ، إلا أن تلك القصة صارت هاجسا فى مصر .. وبعد أن اثيرت فى عام ١٩٩٢، عادت وطرحت فى عام ١٩٩٤.. فقال المهندس محمود الصورى رئيس الهيئة القومية للإتصالات : «إن الاختراق غير ممكن أبدا» . و أضاف : إن هناك شبكات كثيرة فى العالم تشبه شبكتنا .. أمريكا نفسها تشترى سنترالات من الخارج ونحن لدينا أربع شركات أمريكية وفرنسية وألمانية ويابانية .. أما فى الأعطال فلدينا شركة أمريكية هى «ريليانز» . وفنيا لكى يحدث اختراق لابد وأن تتم عملية توصيل مباشرة مع الشبكة ، وهذا الربط غير موجود إذن فالاختراق غير ممكن .

وبدا الصورى وكأنه يرد على «الاهالى» عندما قال : لا يوجد كومبيوتر مركزى فى أمريكا يتصنت على مصر .. هناك قاعدة بيانات داخل كومبيوتر فى مصر لتحديد مكان الأعطال، والشركة الأمريكية هى المورد فقط .. ومهمتها تنتهى بانتهاء عملية التركيب التى تتم تحت اشراف المهندسين المصريين (*)

ومن الواضح أن المهندس الصورى كان يتحدث عن تكنولوجيا عادية ، ومن الواضح أنه لم يكن يريد الحديث عن أنه من الممكن أن تكون هناك أجهزة توصيل بدون أن تكتشف .. بدليل قصة «أكيلى لورو» .. ثم لماذا نذهب بعيدا وقد نقلت وكالة رويتر تقريرا فى صيف نفس العام -١٩٩٤- عن قلق الرئيس الأمريكى بيل كلينتون من التصنت على أجهزة التليفون .

لقد قال الخبر بوضوح : أصيب النظام الجديد الذى تبنته ادارة الرئيس الأمريكى كلينتون

(*) «السفارة الأمريكية فى القاهرة -روزاليوسف- خالد داود- ١٩٩٤/١/٣١» .

للحفاظ على سرية المحادثات التليفونية والاتصالات عن طريق الكومبيوتر بنكسة كبيرة عندما إكتشف أحد المهندسين عيبا واضحا فيه يسمح لأولئك الذين يتمتعون ببعض المهارات بإرسال رسائل شفرية يصعب على الأجهزة الحكومية المختصة فهمها ، وهو ما يعنى مساعدة الارهابيين والمجرمين على القيام بأعمالهم .

إذن الاختراق ممكن ، حتى داخل امريكا ، وحتى فى أحدث الشبكات ..

ويوضح هذا بقية الخبر الذى قال فيه هذا المهندس : إن أى شخص لديه مهارات كافية فى استخدام الكومبيوتر يمكنه أن يهزم تكنولوجيا الحكومة باستخدام الجهاز فى ارسال الشفرة ، بينما تطالب ادارة كلينتون منذ أكثر من عام باستخدام هذا النظام للحفاظ على السرية . وقد اعترفت هيئة التجسس الالكترونية الحكومية بهذا الخطأ .. ولكنها قالت ان النظام لم يزل مفيدا .

وحتى يعترف الجميع فى مصر وواشنطن بأن الاختراق ممكن فإننا لن نفاجئ إذا حدث سيناريو مشابه «لأكيلى لورو» خاصة وأن التجسس الأمريكى على مصر لم يزل مستمرا .. وخاصة أن أدلة ذلك سيناريوهات عديدة حدثت فى الثمانينات والتسعينات .

فى عام ١٩٨٧ لم تحدث علمية تجسس مباشرة ، ولكنها كانت وقيعة بين الرئيس مبارك ووزير دفاعه المشير أبو غزالة عن طريق باحث أمريكى مرتبط بأجهزة المخابرات اسمه «روبرت سبرنج بورج» .. ففى هذا العام ، وقبل سنتين من عزل الرئيس لأبو غزالة كان الباحث الأمريكى ينشر فى خارج مصر دراسة بالانجليزية تعتبر نموذجا «لدق الاسفين» فى قلب دولة ، بحيث تدفع مسئولا لأن يتخذ قرار قد الى يكون ينوى اتخاذه .

فى هذه الدراسة التى نشرت فى تقرير الشرق الأوسط «Merip» فى «يوليو - أغسطس» ١٩٨٧ تحت عنوان «الرئيس والمشير - العلاقات المدنية والعسكرية فى مصر اليوم» .. فى هذه الدراسة قدم سبرنج بورج مجموعة أوصاف لأبو غزالة ومبارك كان معناها أن الأول أقوى من الثانى رغم أن الثانى أعلى من الأول دستوريا.. قال «بورج» : كان الرجلان مختلفين اختلافا كبيرا «فأبو غزالة شخص ذو منطق واضح قوى وطموح ، كما أن مقابلاته غير المسجلة مع الصحفيين الأمريكيين تعطى المشاهد انطباعا بقدرته على مواجهة المسائل مباشرة بشكل محدد، بعكس مبارك الذى يعطى انطباعا بأنه حمل عناء الرئاسة كرها وقرر -بصرف النظر عن الواجب- أداء الوظيفة بأفضل ما يمكنه .

قال أيضا : ويعطى أبو غزالة انطباعا بأنه يتطلع الى السلطة ويريد تنفيد برنامجه .. وهو يتمتع بجاذبية شخصية مختلفة عن الشخصية التى يوحى بها المظهر لمبارك .

وقال كذلك : إثر اغتيال السادات مباشرة وقف أبو غزالة منتصبا مشيرا بعصا المارشيلية الى القاتل الفار، مصدرالأوامر بمطاردته ، بينما وقع مبارك تحت المقاعد وخلصه رجال الحرس الذين دفعوه بعيدا بشكل لا يليق .

ولم يقتصر الأمر على هذا فى تلك الدراسة التى نشرت ترجمتها داخل كتاب «الجيش والديموقراطية فى مصر - المحرر أحمد عبد الله - دار سينا للنشر» .. بل وصل الى حد اتهام الرئيس بأنه غير حسن الطالع .. فقال بورج « يبدو أن أبو غزالة - بالاضافة الى نشاطه المتدفق- ينعم بحسن الطالع فهو يتناوب مع الرئيس فى حضور مباريات كرة القدم المهمة ومنى مبارك بسوء الحظ حيث كان حاضرا لعدد من المباريات التى انتهت بالهزائم . وقد إستمر هذا الارتباط

حتى أصبح فى عام ١٩٨٦ نكتة شائعة . وفى صيف تلك السنة فاز الفريق المصرى بمعجزة بكأس افريقيا بينما كان مبارك يشجعه وأطلق على المباراة فورا لقب «كأس مبارك» .

ومن الواضح أن «بورج» كان أيضا يحدد موقف كل رجل من منطق المصلحة الأمريكية .. فهو يقول : إن مبارك يتمتع بمزاج إدارى سعى لدمج اتجاهات عدة فى السياسة المصرية ، وإعادة بعض التوازن الى العلاقات المصرية الخارجية .. بينما أبو غزالة يعد محافظا صريحا ، شديد العداء للشيوعية وبالمقابل مواليا لأمريكا وقد أكد أن أمن مصر لا ينفصل عن أمن الولايات المتحدة وحلف الأطلنطى ونادى بأنه على القوات العربية أن تقوم بالتنسيق مع القيادة المركزية «قوات الانتشار السريع للولايات المتحدة» .

ويقول هذا التقرير أيضا: توحى التغيرات فى القيادات المدنية بأن أبو غزالة كان قادرا على مد نفوذه منذ ١٩٨٥ . فكان أول رئيس للوزراء فى عهد مبارك فؤاد محى الدين ثم كمال حسن على يتصارعان داخل الوزارة على أبو غزالة . ولكن عندما تولى الاقتصادى على لطفى بدلا من كمال على رئاسة الوزراء فى سبتمبر ١٩٨٥ أصبح الطريق مفتوحا أمام أبو غزالة لاكتساب قدرا من الهيمنة على مجلس الوزراء وما عداه.

إن هذا الباحث نفسه هو الذى قال أيضا أن أبو غزالة هو الذى سرب معلومات «أكيلى لورو» لأمريكا .. مما يعنى اتهاما صريحا بلا سند على أن وزير الدفاع السابق كان مصدر للأخبار والمعلومات .. وفى عالم المخابرات لهذه الوظيفة اسم أخر .

وربما يصبح هذا الكلام ذا مغزى ومعنى أكثر وضوحا عندما يعرف قارئ «بورج» قصة أخرى عن الصراع بين الرئيس والمشير «هناك دليل واضح على انه عند هذا الحد كان مبارك قد تحمل الكثير ، فحاول عزل أبو غزالة من وزارة الدفاع ، وعرض عليه منصب نائب رئيس الجمهورية املا فى أن يغريه ذلك برفع اصبعه من فوق الزناد طواعية .. وقد تردد أن أبو غزالة وافق على هذا العرض بشرط أن يحتفظ بوزارة الدفاع .. وقبل أن يتحول الأمر الى مواجهة أعربت السفارة الأمريكية عن أنها لا تستحسن إبعاد أبو غزالة عن منصبه الحالى .. وهى الرواية التى تسللت عبر قنوات عدة ، من بينها بالتحديد التقارير غير العلنية لمسئولى السفارة ومنهم الضابط العسكرى - السياسى «جون ميشيل ديفيز».

هنا، وعند هذا الحد كان الموقف فى تلك قد تحول من من مجرد تجسس الى تدخل فى القرار المصرى .. والمشكلة أن التدخل كان على مستوى السفارة وليس على مستوى رئيس الولايات المتحدة حت يمكن فهمه .. أو حتى قبوله - رغم أن أحدا لا يمكن أن يقبله .

والواقع أن السفارة الأمريكية فى القاهرة تلعب دورا بالرزا ونشطا فيما يحدث فى مصر .. وربما يشعر المواطن العادى بهذا عندما يمر من أمام تلك القلعة التى تحاط بإجراءات أمن لا تقارن إلا بإجراءات الأمن المتبعة فى قصور الرئاسة نفسها . إن المبنى محصن بكل المقاييس ، وبجانب رجال الأمن المصريين المنتشرين فى كل مكان حوله ، يوجد داخله عشرات من خبراء المارينز ، ينظرون الى كل من يدخل ويخرج من وراء زجاج واق للرصاص فى حجرة صغيرة بها العديد من شاشات التليفزيون التى تكشف كل زاوية فى المبنى .

وفى داخل السفارة يعمل ما يزيد على ٥٠٠ أمريكى ، وضعف هذا العدد من المصريين لتكون بذلك أكبر البعثات الدبلوماسية فى القاهرة . وقد بررت ليلى ماكون الملحقة الصحفية فى السفارة

كبر العدد بأنه عائد الى النشاط المزدهر لهيئة المعونة الأمريكية فى مصر والتى تشرف على عشرات المشاريع .(*)

وداخل السفارة يوجد شخص هام هو مسئول محطة وكالة المخابرات الأمريكية فى القاهرة . ، وهو غالبا ما يكون من أهم الشخصيات فى السفارة ويتمتع بالحصانة الدبلوماسية .. هذا الشخص من غير المسموح لآخرين الاتصال المباشر به .. ورغم نشاطاته فهو معروف جيدا للسلطات الأمنية المصرية .. وتقول الملحقة الصحفية بالسفارة «إن العلاقات بين البلدين لم تعد تتطلب التجسس بقدر ما تتطلب التعاون والتنسيق» .

ولكن هذا فى الواقع عكس ما يحدث بدليل أن أحد ضباط المخابرات الأمريكية الذى كان يعمل فى السفارة ادراج اسمه فى قرار اتهام قضية تجسس معروفة «راجع الفصل الثانى» .. وبدليل أن «التعاون والتنسيق» فى قضية ثورة مصر لم يكن هدفه خدمة الأمن المصرى ، بقدر حماية المصالح الأمريكية والاسرائيلية .

والواقع أيضا أن السفارة الأمريكية كانت تبحث عن أى خيط يمكن أن يدلها على هذا التنظيم الذى قلب الدنيا فى القاهرة وواشنطن وتل أبيب .. ورغم أن الجميع كان يبحث إلا أن المعلومات جاءت للسفارة الأمريكية على طبق من فضة ، وكان السبب فى هذه المرة مواطن مصرى خائن .. تماما كما حدث فى قضية سامى واصف «عملية ڤيڤيان» .

لقد جرى السيناريو وفق ترتيب غريب .

وقد بدأ بمكالمة تليفون :

ـ آلو .. السفارة الأمريكية .

■ نعم .

ـ أريد التحدث مع فرانك وزنر ـ السفير الأمريكى فى فى أمر هام للغاية

■ ومن أنت ؟

ـ ليس مهما .. لكنى لدى معلومات هامة عن تنظيم ثورة مصر .

وبالطبع تصرف عامل التليفون وفق ما تدرب عليه . أسمع المتحدث موسيقى «الهولد» .. وأبلغ مدير الأمن فى السفارة .. ثم بدأ تسجيل المكالمة . قال للمتحدث «إن السفير غير موجود فى مكتبه هل يمكن أن تتحدث مع مسئول آخر» . هنا أغلق سماعة التليفون على الطرف الآخر . وأصبح على المتحدث أن يترك المكان الذى يتكلم منه فورا ، وإلا فإن التليفون قد يكون مراقبا ، فيتم اصطياده قبل أن يفرض شروطه .

وقد كان هذا المتحدث أحد أهم عناصر التنظيم .. أحمد عصام ، شقيق محمود نور الدين مؤسس ومفكر «ثورة مصر» .. وقد قرر عصام أن يبيع الجميع : أخيه والتنظيم وزملائه وبلده مقابل جواز سفر أمريكى ونصف مليون دولار .. إنه جاسوس مثل غيره قرر أن يخون ، حتى لو كان الثمن هو وصول أخيه إلى حبل المشنقة . ومثل هذا النوع يبحث عنه الأمريكان فى كل مكان .. خاصة إذا كان يقدم نفسه دون أن يطلبه أحد .

كان الأمريكيون يبحثون عن هذا التنظيم الذى لا يعرفون عنه شيئا سوى اسمه الذى تتلقاه وكالات الأنباء بعد كل عملية من ذلك النوع الذى قتل فيه «زيفى كدار» مسئول الأمن فى السفارة

(*) «السفارة الأمريكية فى القاهرة ـ روزاليوسف ـ خالد داود ١٩٩٤/١/٣١

الاسرائيلية في يونيو ١٩٨٥ . أو عملية البرت اتراكش .. المسئول السابق عن الموساد فى انجلترا والذى كان يعمل فى مصر وقتل فى اغسطس من نفس العام .. أو عملية الهجوم على سيارة اسرائيلية أمام معرض الكتاب فى العام التالى .

لكن عملية البحث عن التنظيم صارت هدفا أمريكيا بحتا بعد أن أصبحوا هم أنفسهم الهدف .. عندا أطلق الرصاص على ثلاثة من العاملين فى السفارة فى مايو ١٩٨٧ .

لهذا بدا الاتصال التليفونى الذى أجراه أحمد عصام هاما للغاية .. وبقى جميع من علموا به فى السفارة ينتظرونه أن يكرره مرة أخرى .

فى اليوم التالى للإتصال الأول أجرى أحمد عصام مكالمة جديدة .. وفى ذلك اليوم فوجئ بأنه على الطرف الآخر مع السفير الأمريكى فرانك وزنر . رحب السفير بعصام ، وقال له ما الذى تريده تحديدا . فطلب الجاسوس المتطوع جواز سفر أمريكى وأن يحول له نصف مليون دولار فى حساب خاص بأحد بنوك سويسرا .

وبطبيعة الحال احتوى السفير الشخص المجهول الذى كان يتحدث إليه ، وتكلم معه بعبارات مشجعة للغاية .. ثم طلب منه أن يكرر اتصالاته خلال يوم أو يومين .. لتحديد موعد اللقاء . لكن عصام الذى يبدو أنه لم يكن يدرك أنه يتعامل مع أخطر الأجهزة فى العالم ، وضع سماعة الهاتف وبدأ يفكر فى الخطوة التالية .. وقد كانت تلك الخطوة هى اتصال جديد مع السفير ، وعندما تأكد من أنه موجود ، أغلق الهاتف .. وانطلق خلال دقائق لمقر السفارة بنفسه .

فى العاشرة والربع كان عصام أمام موظف الاستعلامات بالسفارة (*). طلب عصام لقاء السفير فقيل له من أنت وماذا تريد وبعد لحظات من التلعثم والتردد قال : قل له اننى صاحب المعلومات عن تنظيم صورة مصر .

وكأن حريقا اشتعل فى السفارة .

كل من يهمة الأمر هرع من مكتبه ، ضغط موظف الاستعلامات زرا أغلق به الباب على عصام، ووزع عددا من رجال المارينز فى السفارة أنفسهم على المبنى لتأكيد حمايته .. بعضهم ذهب الى مكتب السفير .. وقدم شخص يتحدث بلغة عربية مكسرة نفسه الى أحمد عصام .. قائلا : اتفضل سيادة السفير فى انتظارك .

مرعصام على نقاط تفتيش الكترونى ، ومضى فى الطرقات فى حراسة المارينز ، وبعد أن عبر غرفة السكرتارية وجد نفسه أمام السفير الأمريكى الذى استقبله بحرارة وربت على كتفه ، بيده وبدأ تسجيل اللقاء بالصوت والصورة .

فى هذا الاجتماع كان هناك خمسة أفراد .. السفير ، ومدير أمن السفارة ، وثلاثة موظفين من المؤكد أن لهم مهاما أمنية .. وبعد لحظات انضم اليهم شخص آخر قيل انه مسئول من السفارة الاسرائيلية. وفى هذا الاجتماع كان أحمد عصام يقدم للأمريكان معلوماته الكاملة عن التنظيم الذى يعتبر أحد قياداته ، بشرط أن يتأكد من ثقة الوعود التى تلقاها بمنحه المكافأة وجواز السفر .

عندئذ، وكما هو مفترض من سفير يريد أن يعرف كل شيء عن هذا التنظيم قال فرانك ويزنر اطمئن إننا سنوفى بوعدنا ، وسف تستقبل فى الولايات المتحدة استقبال الأبطال .

(*) «كتاب ثورة الابن - مصطفى بكرى - القاهرة-ص ١٩» .

وقد بقي أحمد عصام في هذا المكان حتي الساعة الرابعة عصرا ، قال كل شيء .. أعطى السفير ومساعدوه العناوين وأرقام التليفونات والأسماء والصفات ، وأجرى اتصالات أمامهم ليتأكدوا من أنه صادق وحكى تفاصيل العمليات التي نفذت ، والطريقة التي تمت بها .. ببساطة قدم التنظيم علي طبق من فضة للمخابرات الأمريكية .

إن بقية القصة معروفة .. لكن الذي ليس معروفا هو أنه هناك أسماء عديدة من المصريين صارت تقدم نفسها لمن يدفع . سواء كان ذلك من خلال التجسس المباشر أو غير ذلك .. بداية من سامي واصف وحتي ممدوح زخاري جاسوس الاسكندرية الي أحمد عصام ، أوعناصر الجماعات المتطرفة . والمشكلة أنه لولا هؤلاء ما كانت هناك معلومات يمكن الحصول عليها رغم كل هذا التقدم التكنولوجي الذي تملكه أمريكا .. ورغم كل الأموال .. والشركات والشبكات ..

ثم لماذا نذهب بعيدا وأمامنا أمثلة أخري عديدة علي أن هناك قصصا تتم لا نعرف تفاصيلها.. وقصصا غيرها تمت بمساعدة المصريين .. وليس أكثر دلالة على هذا من قصة جنرال موتورز ، تلك الحكاية التي اشترك فيها وزير الدفاع السابق المشير أبو غزالة بمساعدة هيئة المعونة الأمريكية .

والرواية هنا مصدرها أمريكي .. فنحن نعود معها الي دراسة «روبرت سبرنج بورج» «الرئيس.. والمشير» ..

يقول الباحث الأمريكي أن المشير أبو غزالة بوصفه رئيس اللجنة العاليا لسيارات الركوب المصرية عمل عن قرب مع السفارة الأمريكية ، وبالأخص مع المستشار التجاري تيدر وزين والسفير نيكولاس فليوتيس لإعداد صفقة تستطيع أن تنافس عروض سيارات فيات وبيجو ومختلف صانعي السيارت اليابانية وحتى تتشجع جنرال موتورز لكي تقدم عرضها قررت هيئة المعونة الأمريكية أن تحول ٢٠٠ مليون دولار من أموال المعونة الممنوحة لمصر الي شركة جنرال موتورز حتى تضمن المكاسب المتوقعة .

وهكذا ضغط السفير والمستشار التجارى لإعادة توجيه أموال المعونة مستغلين في ذلك التدخل الشخصي لأبو غزالة .. بينما عملت جنرال موتورز على اقناع المسئولين عن المعونة الأمريكية ، الذى اعترضوا على أساس أن هدف أبو غزالة هو إنشاء مصنع مصرى للمحركات تستفيد منه مركبات الجيش . وفي حين قالت جنرال موتورز لمسئولي هيئة المعونة أنها لا تنوى بناء مصنع للمحركات في مصر ، أقنعت في المقابل أبو غزالة بأنها سوف تهتم بإنشاء مصنع المحركات عندما ترتقي عمليات تجميع السيارات الي مستوى مناسب .

وفيما يبدو فإن جنرال موتورز كانت تسعي لحشد جميع وسائلها للحصول علي عقد الصفقة .. ولهذا احتفظت بخدمات مقاول مصرى معروف اسمه نيازى مصطفى يعمل في مجالات الفنادق والبناء واستصلاح الأراضي ، ووسبق له أن عمل كوكيل للشركة الأمريكية في صفقة محركات لمصر .

وفازت الشركة الأمريكية بالصفقة ، التي وصفها الباحث الأمريكي نفسه بأنها «جسدت التحالف بين الجيش والبورجوازية وتبعيته لرأس المال العالمي» .

ولكن القصة قد تبدو غير مفهومة عند هذا الحد .. ولذلك فإننا نطرح مجموعة من الملاحظات الدرامية عليها .

فأولا : يفهم من الرواية أنه لكى تقدم الشركة عرضا ملائما يجب أن تكون لديها معلومات عن عروض الشركات الأخرى .. وهذه المعلومات موجودة فى اللجنة العليا لسيارات الركوب .. يفهم كذلك منها أن هناك عقدا وبالتالى هناك عمولة .. ويفهم من ناحية ثالثة أنه لا يهم البعض أن يضحى بأموال المعونة حتى تتم الصفقة ، وبدلا من أن توجه المائتى مليون دولار لأى عمل يخدم الاقتصاد وجهت لمشروع شركة كبرى ، يتبع مؤسسة أمريكية دولية .. أى أن الأموال الأمريكية عادت لأمريكا وبمساعدة مصرية .

إن القصة جزء من سيناريو متعدد الفصول .. سيناريو التجسس الذى لا ينفيه وجود التحالف ، بين القاهرة وواشنطن .. تجسس يصل الى حد الاختراق .. ويتجاوز الى حد التدخل السافر فى السياسة الداخلية .. تجسس يجعل من مصر وكأنها كف مفتوح أمام أى صانع قرار فى واشنطن سواء كانت حدود هذا الكف هى قصر الرئاسة أو قرية فى قلب جبل بالصعيد لا يعرف اسمها عالم الجغرافيا الراحل جمال حمدان .

.. انتهت تفاصيل القصة ..

لكن هذا لا يعنى أن التجسس الأمريكى على مصر انتهى .

الفصل الثانى

«عملية فيفيان»!

جواسيس ترمس الشاى

قبل أن تقرأ هذا الفصل : غني عن القول انني احترم الأقباط وأومن بأن لهم دينا سماويا كما تؤكد هذا عقيدة الاسلام .
وربما كانت الصدفة هي التي جعلت أبطال تلك القصة من أقباط مصر ..
وربما قصدت ذك المخابرات الأمريكية بكل ما هو متوافر لديها من سوء نية !

بعض الناس يخلعون ملابسهم ليأكلوا ..

بعض الناس يخلعون أيضا شرفهم ، كما لو أنه حذاء ، من أجل حفنة دولارات ..

بعض الناس لا يكتفون بالخلع والقلع ، ويبيعون آبائهم مقابل تأشيرة هجرة ..

وبعض الناس يبيعون كل شيء .. الأب والأم والأبناء والوطن .. مقابل لا شيء .

هذا زمان البيع ..بلا ثمن !

و،في زمان البيع تتلاشى الفوارق ، وتضيع الفواصل .. فلا يمكن أن نكتشف الفرق بين بائع وبائع .. بين إمرأة تنام على سرير أي رجل ، تعرض ثدييها لمن يدفع ، وتفتح ساقيها لدفتر شيكات . وبين عميل مخابرات يضاجع الأجهزة ، ويعاهر الدول ، ليأكل بوطنه .

كلتاهما دعارة بأسماء مختلفة .

وفي واقع الأمر لم يكن هذا هو الوصف الذى يطلقه أبطال عملية «ڤيڤيان» على ما يقومون به.. لم يكن أي منهم يرى -حتى- أنها خيانة .. أو تخابر أو تجسس .. وكان كل منهم يعتقد أنه يقوم بهدف نبيل ، وكأنه مسيح .. وأنه يخدم بلده بطريقة مختلفة ، وأن الجميع سوف يعرف فيما بعد انه عانى معاناة الأنبياء .. ولهذا لم يكن غريبا أن يقول أحدهم في ملف القضية : «لقد تعاونت مع المخابرات الأمريكية من أجل مستقبل مصر» !.

ولم تكن هذه الجملة مصرية .. كانت أمريكية .. وكانت واحدة من مبررات عديدة حاول «نيكولاس إدوارد رينولدز» ضابط المخابرات الامريكي أن يقنع بها أعضاء شبكته أثناء عملية التجنيد .. وقد كان عضوا الشبكة يعرفان بالتأكيد أن هذا مجرد كلام فارغ .. مجرد غطاء أملس لثعبان .. مذاق سكرى لسم قاتل .. ولكنهما اقتنعا .. وصار «الكلام الفارغ» ميثاقا للوطنية ، ودستورا للوفاء ، وقرانا للأغراض النبيلة .

وبدأ الفريق الثنائي العمل .

ولكن هل تكفى كلمات معسولة ، وجمل وهمية لإقناع شخص ما بأن يبيع بلده ؟!

فى الواقع لا .. فهناك عوامل كثيرة أي مصرى من مصرى على أن ينسى طعم مياه النيل ، وصوت أم كلثوم ، وعذوبة عبد الحليم حافظ ، ونكهة رمال الصحراء ، وشموخ النظرة الى الهرم ، وطعم الخسارة عندما يهزم الفريق القومى ، وضحكة تذكر كتب القراءة في المدارس وجمال اجترار قصة «عادل الذى دخل الحظيرة» ..

إن دماء «سمير» و «سامى» خالية تماما من كل هذا .. وقد كانت مصرية الاثنين مجرد دفتر أوراق له غلاف أخضر اسمه «جواز سفر» .

لم يعش أيا منهما فى حارة مصرية رغم أنهما من شبرا .. لم يدخلا مدرسة مصرية يلبس فيها التلاميذ «مريلة من قماش تيل نادية» .. لم يعمدوا فى كنيسة أرثوذكسية رغم أنهما قبطيان .. لم يمزقا مقاعد أتوبيس عام ليستخدما الاسفنج فى صناعة كرة غارقة فى «الكُلة» ليلعبا بها فى الشارع .. لم يقف أي منهما على عربة فول مدمس تحمل قدرة خارجة لتوها من «المستوقد» .. لم يسمع أحدهما حدوتة «أبلة فضيلة» .. ولم يعرفا معنى أن تسمع أغنية تقول «وأنا على الربابة باغنى .. تعيشى يا مصر» .

لقد نسيا شكل «الربابة» .. فهما ببساطة لم يولدا فى القاهرة .

■ ■

كان كل شيئ مخنوقا في مصر بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ . كل شيء يعاني من طلوع الروح .. من عذاب النفس الأخير .. كل الناس في حالة انحناءة . يمشون في الطرقات وكأنهم ركوع .. لم تعد الرؤوس مرفوعة ، وكأنهم يبحثون في الأرض عن الحلم الذي ضاع ، والثورة التي كانت .. وعن وسيلة للخروج من متاعب ضيق العيش والحرية المكتومة والهزيمة في كل مجال .

ولم تكن كل هذه الأمور تعني شيئا ليوسف ابراهيم .. كان يبدو مع زوجته وكأنهما جزيرة معزولة داخل المجتمع . كان يريد أن يبدأ حياة جديدة .. رحبة .. في دولة أخرى لا تعاني . وقد كانت الدول الأخرى في رأيه جنة مقارنة بمصر ، لاسيما وأن عديد من أقاربه سافروا ونجحوا .. وخاصة أن زوجته كانت تلح في ذلك . وتعبئ رأسه في كل مساء بقصة أخيها الذي فر الى تكساس قبل عشر سنوات ، ويرسل صورا ملونة يؤكد بها أنه أصبح مليونيرا .

وكانت الصور تداعب الأحلام الوهمية في رأس الزوجين .

ونما الوهم في تربة من خيال .. صنع الحلم لنفسه عشا في عقليهما .. عندئذ اختفى الأخ تماما من رسائل البريد . كانت النهاية خطابا أرسله الزوجان يطلبان فيه «وصفة الهروب» . وكتبت الزوجة تقول : أخي العزيز . لم نعد نطيق الحياة هنا . إننا نعيش في وهم كبير . نمثل على بعضنا .. نعاني من الزحام .. لقد امتنعنا عن الانجاب حتى نضمن لأبنائنا مستقبل مناسب .. إنني الاحظ تردد يوسف وخوفه في اتخاذ قرار السفر . إنه يخشى الفشل . ولكني قلت له لو لم تذهب معي ، سأفعلها بمفردي .

ولم يصل الرد .

ولم تعد تصل رسائل معبأة بالصور الملونة ، والكروت السياحية ، والأخبار البراقة عن مشروعات الشقيق الهارب من قيود مجتمع عبد الناصر ، أو حتى تلك القصص الوهمية عن الملايين التي تدخل جيب أي مغامر في الولايات المتحدة .

ولكن الحلم كان قد أصبح الحياة كلها .

وكانت الزوجة قد أصدرت قرار السفر .. ولم يعد يبق سوى التنفيذ .

وقد بدأت الرحلة بتأشيرة سياحية الى اليونان . باع الزوج عدة قراريط ورثها من أبيه في المنيا .. وباعت الزوجة صالون مذهب اشترته لها أمها من دمياط قبل الزواج . وطار الزوجان الى خارج مصر .

كان المفروض أن يقضي الزوجان يومين في أثينا .. جولة مفتوحة مع الفوج السياحي الصغير .. ثم يسافران في إطار نفس البرنامج الى جزيرة يونانية يقضيان بها اجازة صغيرة على مياه المتوسط الصافية . لكن الزوجين خالفا البرنامج بمجرد وصولهما للمطار .. اختفيا فورا .. ولم يبحث عنهما مندوب الشركة ، كان يعرف أن هذا سوف يحدث .. لاسيما وأنه تعرض لمثل هذا الموقف من أكثر من مصري .. وبينما كان أعضاء الفوج يركبون الاتوبيس السياحي الذي ينتظرهم خارج المطار كان الزوجان يجلسان داخل سيارة أجرة ويطلبان من السائق توصيلهما الى السفارة الأمريكية .

في السفارة قالت الزوجة وهي تغالب دموعا صناعية : «نحن نطلب اللجوء السياسي للولايات المتحدة» .. كانت هي صاحبة الخطة ، ولهذا لم يكن غريبا أن تبادر هي بشرح الطلب الغريب لضابط مختص في السفارة .. قالت : إنني مسيحية في دولة مسلمة . أنت لا تعرف كم هي

صعبة الحياة فى مجتمع يؤمن الناس فيه بأن المسيحية دين من الدرجة الثانية .

ثم انفعلت ، ومدت يدها داخل حقيبة معها ، وأخرجت سلسلة ذهبية فى نهايتها صليب .. وقالت : «تخيل .. اننى لا أستطيع أن أعلق هذا فى صدرى» . «جيرانى يعتدون على فى كل يوم .. خاصة يوم الأحد» . وفجأة رفعت البلوزة عن كتفها وكشفت عن كدمة زرقاء وهى تقول : «إن جارتى ضربتنى لأنها لا تحب المسيحيين» .

ووجد الزوج نفسه صامتا ، فقرر أن يساندها : لقد امتنعت عن الانجاب لأننى أريد أن أسمى ابنى جورج .. لا أتمنى أن يعانى ابنى مما نعانى فيه .

وفى الواقع لم يكن ما يطلبانه حسب تلك الرواية هو اللجوء السياسى ، وإنما اللجوء الدينى .. ولكن الأمر لم يكن بهذه الأهمية للبحث فيما هو الفرق بين نوعى اللجوء .. ولم يكن الضابط مهتما بهذا .. لم يكن مهتما باستكمال التحقيق للتأكد من صدق أقوال الزوجين .. كان العداء بين مصر والولايات المتحدة كافيا لقبول أى كلام .. أى مبررات .. حتى لو لم يكن هناك دليل مادى يدعم الرواية ، باستثناء كدمة زرقاء فى كتف الزوجة . ولكن الضابط وجد أمامه صيدا جديدا قابل مثله عدة مرات ولهذا اكتفى بمنح الزوجين تأشيرة دخول للولايات المتحدة الأمريكية .

■ ■

هنا ، وقبل ربع قرن من نهاية قصة الابن .. بدأت عملية ڤيڤيان .

لم تكن التأشيرة بلا ثمن .

كان المقابل جلسات طويلة جلس فيها الزوجان مع ضابط مخابرات صغير قدما فيها تقريرا مفصلا عن مصر . قال الزوجان كل شىء .. وضعوا كل ما رأوه منذ تفتحت عينيهما على الدنيا .. حالة الجنود .. السيارات العسكرية التى رأوها فى الشوارع .. وصف المواقع الرسمية الهامة القريبة من بيتهما فى شبرا .. النكات التى يتبادلها الناس .. الشائعات .. التعبيرات التى أطلقها الشعب على الحكام .. هل يتوقع المصريون حربا قريبة ؟ .. وكيف .. وما هو رأى الناس فى عبد الناصر .. ولو مات من الذى سيخلفه .. وما هو انطباع الناس عن الاتحاد السوفيتى .. وزكريا محى الدين وعلى صبرى .

باختصار قدم الزوجان تقريرا من حلقات عن نبض الشارع ، لا يستطيع جاسوس يعيش فى مصر منذ قرن دون أن يُكتشف أن يقدمه .

استأجر يوسف شقة فى نيويورك -كان لديه بعض المال المتبقى من ثمن الأرض- ثم جلس فى بيته ينتظر فرصة العمل .. وقد طال انتظاره .. لم يطلبه أحد . قالت له زوجته : «ولماذا لا تتصل به أنت ؟» .. وقد كان . قال للضابط : «وحتى الآن انتظر أن تساعدونى فى الحصول على عمل» .. رد عليه : وهل بحثت عن عمل ؟ فأجاب بالنفى .. عندئذ ضحك الضابط قائلا : إن أمريكا مختلفة بعض الشىء .. يجب أن تبحث بنفسك عن وظيفة . صمت يوسف للحظات شعر فيها أن الجنة تتسرب من بين يديه . لكن الضابط جذبة من أفكاره .. وقال : يمكنك أن تمر علىّ فى نهاية الاسبوع .

فى يوم الجمعة كان يوسف ينتظر الضابط قبل الموعد بنصف ساعة كاملة .. إنه عاطل ، وقته كله ضائع بين السرير والحمام والراديو .. لا شىء يفعله . وقبل أن تمر عليه عدة أيام حتى جاء الموعد كان يفكر فى أن يعود .. لقد اشتاق للاستيقاظ فى السابعة ، ولرائحة حمامه التى لا تطاق

ومل من تكرار مطالبة زوجته بأن تنظفه جيدا .. إشتاق للافطار على «الطبلية» لأن زوجته ترفض استخدام مائدة «السفرة» حتى لا تفسد .. اشتاق لانتظار الترولى باص .. اشتاق «للكمسارى» الذى لم يزل يحرك قطع النقود فى جيبه .. اشتاق لتبرمه عندما تسقط السنجة ويضطر -الكمسارى- أن ينزل ليعيد عجلاتها الى الأسلاك .. اشتاق للمصلحة ورائحة سناودتشات الباذنجان فى مكاتبها .. اشتاق لنفسه وهو يجلس بعد الساعات الباقية حتى يعود لبيته .. اشتاق لمربع كلمات متقاطعة فشل دائما فى أن يكمله ..

اشتاق لبلده .

وقد ضبط نفسه ذات مرة فى حالة الشوق تلك فأدرك أنه ندم من داخله .. وشعر أنه سافر بناء على قرار لم يوقع عليه .. وأنه كان يحلم بجنة كما لو أنه يقرأ حديث الأنجيل عن الحياة مع الرب .. ولهذا فإنه قضى وقته يصلى .. كان بشكل ما يبحث عن توازن نفسى يمكن أن يساعده على أن يقف على قدميه ، خاصة عندما أدرك أنه وحيد بلا سند .

سأله الضابط فجأة : ماذا تفعل ؟ .. فقال بدون تفكير : فقط أصلى .

هنا وجد الضابط مدخلا ملائما لكى يطرح فكرته .. قال له : ولماذا تفعل ذلك فى البيت ، لماذا لا تذهب للكنيسة ؟

أحس يوسف ابراهيم انه رجل بلا عقل عندما سمع الكلمة الأخيرة .. كيف لم يتذكر أن هناك كنائس مصرية فى الولايات المتحدة .. وأنه يمكن أن يلقى مصريين ويجد عندهم بعضا من رائحة وطنه الذى شعر فجأة أنه يفتقده رغم أنه لم يغادر مصر إلا منذ أسبوع . لكنه -وفجأة أيضا- شعر بالخوف وتوهم أن رجال عبد الناصر يمكن أن يطاردوه لو عرفوا قصته عن طريق المصريين الذى يمكن أن يقابلهم فى الكنيسة .

وربما يكون الضابط قد عرف ما يدور فى رأسه ، ولهذا فإنه سارع بالحديث لكى يطمئنه : لا عليك .. إنهم هنا جميعا يعملون فقط .. يربحون .. ولايوجد بينهم من يمكن أن يضرك . ولا تنس أن مصر دولة ضعيفة ستأخذ وقتا حتى تعرف أنك قد هربت .. لقدر راعينا ذلك ، ولم نكشفك ، عندما لم نمنحك حق اللجوء السياسى .

فى واقع الأمر كان الضابط يضع يد يوسف ابراهيم على وسيلة الاندماج فى المجتمع الأمريكى بشكل غير مباشر ، لكنه فى نفس الوقت كان يربطه بمصر عن طريق الكنيسة .. إنه ببساطة أدرك أنه قد يحتاج ذلك ذات يوم ، خاصة وأنه يتابع أوضاع الأقليات فى الولايات المتحدة.. لقد أفاد يوسف واستفاد فى نفس الوقت .

لقد أصبحت الكنيسة هى مفتاح العملية الجديدة .

هناك وحيث توجد رموز مجتمع مصرى كامل بدأ يوسف حياته فى الولايات المتحدة . ولعله وجد الطريق سهلا للغاية خاصة وأن أحدا لم يسأله كيف خرج من مصر ولا كيف وصل الى نيويورك . لكنه وجد رائحة الوطن .. عثر عليها وكأنه يبحث عنها منذ زمن طويل . وكأنه داخل كنيسة مار جرجس فى شبرا ينتظر تجلى السيدة العذراء فى ليلة شتوية يدفئها زحام رواد الكنيسة . وهنا فى نيويورك داخل الكنيسة وجد من يمد يده إليه ليساعده .

وكانت البداية عبارة عن عمل بلا مكتب فى شركة يملكها مصرى يقيم فى نيويورك .. تبيع كل شىء .. وكان على يوسف أن يبيع هو الآخر كل شىء طالما أنه يريد أن يصبح شيئا .. ويمضى

الوقت شرب يوسف تفاصيل المهنة ، وأمدن ما هو مطلوب منه.ذلك أنه بجانب عمله كان يقضى وقتا طويلا بين أبناء جنسيته .. وكان كلما سمع شيئا قاله للضابط الأمريكى .

هكذا مضت السنوات .. ومضت العلاقة تنمو بين الجانبين حتى صار الضابط يعرف كافة تفاصيل حياة العائلة من الأم الى الأب وحتى الأبنين ..

ولكن ما فائدة كل هذا ؟

إن فائدته ستتضح جليا عندما يتم اغتيال الرئيس السادات .

لقد أطلق الرصاص .

وفى هذه اللحظة أخذت المخابرات الأمريكية قرارا بالعملية ..

كان من الواضح أنها بحاجة لذلك النوع من العمليات الذى يقترب كثيرا من نبض الناس .. تجسس القاع .. على معمل الشارع ، بعد أن غرقت لسنوات طويلة فى عمليات «القمة» .. واختراق الصفوة .. لقد أدركت عندما أطلق الرصاص على أنور السادات أنها يمكن أن تفاجئ ذات يوم بسيناريو يشبه ما حدث فى طهران .. وهو ما دفع «وليم كيزى» لأن يقول لمساعديه صارخا : «ادفعوا ببعض الناس فى الشارع ليقولوا ما إذا كان أحد بسبيله لإطلاق النار على مبارك» .

فى تلك اللحظة أدركت المخابرات الأمريكية أن كل هذا الكم من المعلومات الذى يصبه العملاء فى ادراجها ليس كافيا على الاطلاق .. لقد كان أمام المحللين فيضا هائلا من المعلومات يتدفق عليهم ، حتى انهم فى بعض الأوقات كانوا يجدون صعوبة كبرى فى ترتيبها .

إننا هنا نتوقف قليلا لنرصد الحالة التى كان عليها موقف عمليات المخابرات المركزية فى مصر قبل أن نبدأ علمية «ڤيڤيان» .. وقبل أن يطلق الرصاص على الرئيس أنور السادات .

لقد وصف «بوب وود دارد» العملية الأمنية التى كانت تقوم بها المخابرات الأمريكية فى مصر بأنها : «تزود الرئيس السادات بالحماية والتحذيرات من مؤامرات الانقلابات والاغتيالات .. وتتيح للمخابرات المركزية امكانية التجسس بالوسائل الالكترونية والبشرية على حكومة مصر ومجتمعها ورئيسا» .

ورغم ذلك ..

ورغم أن هناك جواسيس فى كل مكان .

كانت تلك العملية الأمنية تعانى من قصور فادح ففى ٦ أكتوبر ١٩٨١ تلقى «وليم كيزى» نبأ عاجل عن اطلاق النار على الرئيس السادت اثناء العرض العسكرى . وبينما محطة المخابرات الأمريكية ظلت تكرر طوال ثلاثة ساعات فى الخط الرسمى مع الحكومة أن الرئيس لا يعانى من اصابة خطيرة ، كانت تقارير التليفزيون الأمريكى نفسه تؤكد أنه مات .

وبعد ثلاثة ساعات من النبأ الأول قالت «المخابرات» ان السادات مات متأثرا بجراحه بعد لحظات من اطلاق النار عليه .

وأحس وليم كيزى بالخزى .. شعر وكأن فيض المعلومات الذ توهم أنه يملكه يتسرب من بين يديه وكأنه يحاول إمساك الماء .. ولهذا : قيل أنه أصيب بما يشبه الأزمة القلبية .. وتصور انه سقط فى فخ عميق من المعلومات عديمة الفائدة التى تنهال على وكالته كل يوم عن أهواء وطموحات وسياسات عشرات من الوزراء والمسئولين .

وأعيد ترتيب الأوراق .

وأتصور أن قرار الدفع بسمير وسامي يوسف الى جامعات مصر كان مسبوقا بتفكير عميق ..

فمن جانب كانت هناك قوة جديدة تنمو في الشارع غير معلومة لأحد .. لكن الجميع يراها أمامه .. قوة أصحاب اللحى .. إنها هي التي قتلت السادات ، وهي التي حاولت الانقلاب عليه ، رغم أنه هو الذي صنعها .. وو ضع بذرتها بيده في الجامعة .. لأنه كان يخشى قوة أخرى تسيطر على الجامعة .

إذن هنا سيكون مقر العملية الجديدة .. تحت القبة .

وقد كانت مبررات ذلك كثيرة ، وكانت المناقشة التي سبقت اتخاذ القرار سهلة للغاية بالنسبة لضابط المخابرات الأمريكية نيكولاس ادوارد رينولدز ، في ذلك اليوم الذي التقط فيه اتجاهات تفكير الوكالة وقرر أن يدخل على الخط ليحقق انجازا كبيرا شعر أنه في حاجة إليه .

في هذا اليوم دخل «نيكولاس» بملف معبأ بعشرات الأوراق الى أحد رؤسائه كي يقترح العملية الجديدة .. وعندما جلس وفتح الملف كان يقدم تقريرا موثقا عن الجامعة والطلبة في مصر .. قال : هناك نصف مليون طالب في الجامعة .. و١٤٢ كلية و ٣٦ ألف عضو في هيئات التدريس .. ومدن جامعية تضم نحو ٥٠ ألف طالب « بين هؤلاء سنضع ترمومتر يقيس درجة حرارة مصر من الداخل .

كان من الواضح أن الضابط الذي يرأس نيكولاس يعرف كل هذه الأرقام .. ويعرف ما الذي سيقدمه تلميذه ، لكنه مضى يسمع بقية التقرير : هنا في مصر الجامعة أوضح صورة لما يدور بين الناس .. هؤلاء الطلبة يحملون هموم جيل سوف يحكم أو سوف يبقى صامتا ، أو سوف يضرب ، أو يتحرك بحثا عن حلول لمشاكله .. هؤلاء الطلاب هم الذين هزوا عبد الناصر في عام ١٩٦٨ .. وهم الذين ساهموا بقوة في مظاهرات ١٩٧٧ .. وهم الذين حبسوا الدولة معهم في عام ١٩٧٢ داخل ميدان التحرير حتى انتهى الاعتصام بتدخل قوات الأمن ..

وفي الجامعة في مصر خمس تجمعات : اليسار الماركسي ، الناصريين ، الأصوليين الاسلاميون ، ومؤيدو النظام ، واليمين المؤيد أيضا للنظام وإن كان يعارض بعض توجهاته .. إذن نحن أمام ملخص وافي لاتجاهات المجتمع . خاصة وأن هؤلاء الطلاب تحت القبة لديهم علاقات وثيقة بمن هم خارجها .

وقال «نيكولاس» وكأنه يحدد هدفه العملية الجديدة من بين كل هؤلاء سوف نركز على الاصوليون .. لأنهم القوة الصامدة التي تتجه للسيطرة على الجامعة كلها ، ولأن هؤلاء الطلاب الملتحين غالبا ما سوف يصبحون أقوى تأثيرا عندما يخرجون من الجامعة .. ولأن هؤلاء الأكثر قدره الآن على تحريك الشباب في الكليات .. إننا بهذه الطريقة سوف نعرف كل ما يدور في البيوت المصرية بشكل غير مباشر .

ولم يتدخل رئيس نيكولاس في التفاصيل ، خاصة وأن الضابط الذي يعرض التقرير أمامه كان يضيف : إنها عملية سهلة ، لكنها هامة . رخيصة ، إلا أنها ستقدم لنا فيض هائلا من المعلومات عن ذلك المجتمع الهام .

ثم ضرب على الوتر الساخن في الوكالة وقتئذ وقال : اعتقد اننا بهذه العملية لن نفاجئ مرة أخرى باغتيال الرئيس المصري .. وستكون لدينا إشارات مسبقة عن كل ما يحدث !

ولم يخرج نيكولاس من المكتب إلا وقد كانت الموافقة في جيبه .

عندئذ أخذت الخطة طريقان متوازيان .

ففي جانب كانت هناك مشكلة بسيطة خاصة بإعداد «نيكولاس» نفسه لكي يتم دفعه الى مصر حتى يتابع العملية من داخل المسرح .. ومن جانب آخر كان على «نيكولاس» نفسه أن يضع اللمسات الأخيرة على تدريب عميله قبل أن يسافر الى القاهرة تحت غطاء اكمال تعليمه في وطنه الأم .

لقد تزامنت أشياء كثيرة بحكم الصدفة مع بعضها البعض لكي تصل عملية «فيفيان» إلى نقطة الانطلاق .. كان هناك سمير الذي وصل الى سن ملائمه لدخول الجامعة في مصر .. وكانت هناك رغبة قوية في أن يصبح طبيبا .. وكانت هناك الوكالة التي تريد أن تضع يدها على نبض الشارع كما وضعتها على نبض الحكومة .. وكان هناك طموح «نيكولاس» الذي يريد أن يصبح ضابطا ذا قيمة في الوكالة .

إنها الفرصة التي أتاحها القدر .. فبدأ العمل .

■■

لم يكن هناك مأزق أمام «نيكولاس» كي يقنع عائلة «يوسف» بالعملية . فقبل وقت طويل كانت الأسرة بأكملها قد غرقت في الجاسوسية . من الأب والأم الى الابنين .. لكن «نيكولاس» كان يشعر أن «سمير» هو الأصلح للبداية . ليس فقط لأنه الأكبر الذي يمكن أن يدرس في الجامعة في مصر .. ولكن أيضا لأنه الأكثر قربا إليه ، والأشد ميلا للولايات المتحدة ، والذي يحب المال الى درجة العشق .. خاصة وأنه بخيل ، وهو ما يؤدي الى عدم كشفه لأنه لن يصاب بمرض الجواسيس الذي يسقطون في فخ الانفاق ببذخ فينكشفون بسرعة .

وفي نفس الوقت لم يكن هناك مأزق في العثور على غطاء ملائم يمكن أن يتخفى تحته «نيكولاس» نفسه .. ففي القاهرة كانت هناك لافتات أمريكية عديدة تصلح لذلك . وقد استعرض الضابط الأمريكي الصغير مع رؤساءه لافتات عديدة للولايات المتحدة في مصر .. بداية من العمل داخل السفارة ذات الأعداد الفورية من الموظفين ، والتي لن يلفت الأنظار اضافة واحد إليها . وحتى العمل في إطار هيئة المعونة الأمريكية .. أو بعض الشركات الأمريكية الكبرى .. أو في إطار أية هيئة علمية دارسية تقوم بالأبحاث على المجتمع المصري دون أن يسألها أحد عما تفعل بعد أن تحصل على التصريح الأول .

لكن الرأي استقر على أصغر تلك الشركات ..

إنها شركة بسيطة في شكلها العام .. لا توحي بأي شيء .. سوى أن صاحبها يريد أن يكسب .. ويكسب فقط .. و هي شركة خاصة جدا ، يملكها واحد من أهم الأمريكيين في مصر ، الى درجة أنه كان واحدا من بين سبعة أشخاص أمريكيين حضروا حفل عشاء أقامه الرئيس بوش خلال زيارته للقاهرة أثناء حرب الخليج الثانية .. وقد اسس هذه الرشكة مستغلا ظروف الانفتاح في مصر ، فأنشأ عدة مراكز لخدمة رجال الأعمال .. تليفونات وتليكس وفاكس وأجهزة كومبيوتر وشركة بريد سريع دولي .. وبجانب هذا كله كانت هناك عدة مجلات سياحية متنوعة تصدر بالانجليزية ، معبأة بالاعلانات ، وتحاول أن تجعل الاجنبي الذي يعيش في مصر .. قريبا من أماكن الترفيه .. ويمضي الوقت صارت للشركة أفرعا عديدة واصدارات مختلفة ، كلها تربح .

هنا ، وفى هذه الشركة عين نيكولاس ادوارد صحفيا .. لاسيما وأن تلك الصفة سوف تصرح له بلقاء سمير دون أن تلفت الأنظار ، ففى الشركة عشرات من الشباب الذى يملك نفس الصفات .. لغة انجليزية وسن صغيرة وروح أمريكية والبحث عن فرصة عمل .

إذن كان ذلك هو الشكل العام الذى بدأت به العملية فى مصر .

■■

ورغم هذا لم يكن مسموحا فى البداية بأى لقاء بين الاثنين ..

كان على «سمير» أن يرتب كل شيئا بمفرده ..

عاد الى شقة شبرا ، كان يعتقد أن البيت الذى حكى عنه أبيه سيكون قد تلاشى من الوجود .. لكنه فوجئ به فى نفس المكان المحدد فى العنوان .. أخرج المفتاح ، ودس سنه فى «كالون» الباب ، فلم يدخل . حاول مرة أخرى .. وفشل وقرر أن يخرج من البيت يبحث عمن يساعده . لكنه فوجئ بعده أفراد من سكان العمارة حوله .. سرعان ما تعرفوا عليه .. «فعلا أنت تشبه أباك .. كيف هو .. لقد انقطعت اخباره منذ وقت طويل .. هل أمك لم تزل على قيد الحياة» .. وبسرعة أخذ أحدهم المفتاح ووضع عليه قطرتين من زيت الطعام ، ووضعه فى الكالون .. ففتح الباب .. وبدأت رحلة سمير يوسف فى مصر .

لقد كان محظوظا للغاية ، ذلك أنه بمجرد أن انهى أوراق التحاقه بالجامعة ، وبكلية الطب التى كان يحلم بها والديه وجد نفسه داخل المعركة الانتخابية لاتحادات الطلاب .. كان كل شىء حوله جاهز لجمع المعلومات عنه ، وكان الهدف الذى يسعى لرصده أمامه .. بل بجواره على نفس المقعد فى الكلية .. ذلك الهدف كان هو «الملتحين» .

لقد قال له نيكولاس : «إننى أريد أى معلومة عن أصحاب الذقون» .

وقال له كذلك : «حاول أن تتقرب منهم بقدر الامكان .. اجمع أية ورقة يوزعونها .. وارصد أسمائهم .. وتابع معروضاتهم .. ناقشهم .. واعرف منهم كيف يأكلون وكيف يشربون» .

إن ذلك هو هدف العملية ، فقد تصور الأمريكان أن الأيام التالية ستكون لهؤلاء ، خاصة وأن تلك المجموعات هى التى قتلت رئيس الجمهورية .. وقال نيكولاى لسمير «صحيحى أن القتلة كانوا عناصر من الجيش ، ولكن عليك أن تعرف أيضا أنهم تربوا فى الجامعة .. وأنهم خرجوا من المدرجات .. وأن نصف المتهمين فى القضايا الملحقة بقضية الاغتيال هم طلاب فى الجامعة» .

قال سمير لرئيسه : «ولكن كيف اناقش هؤلاء ، انهم يحملون السلاح ، ويكرهون المسيحيون ، وقد يقتلونى .. فضحك نيكولاسى وقال له · ليس الى هذه الدرجة ، لن يقتلوك .. اقترب منهم ، من بعيد ، ولا تقل لهم انك مسيحى .. لن يعرفوا ديانتك ، فانت لم تعمد فى مصر .. ولم يطبع على يدك الصليب المصرى» .

ورغم ذلك التخفيف من وطأة العنف حتى لا يرهب سمير العمل ، إلا أن التقرير الأول الذى كتبه سمير كان معركة دموية حدثت فى مدرجات الكلية .

كانت التعليمات التى تلقاها سمير تفرض عليه أن يشترك فى أى نشاط طلابى .. ولهذا فإنه اشترى تذكرة لحفلة قرأ اعلانا أنها ستقام فى مدرجات الكلية خلال أيام . دفع خمسين قرشا ، وأخرج النوتة الخاصة ، وكتب فيها سعر التذكرة تحت بند المصروفات حتى يحصل على ثمنها من المخابرات الأمريكية عن طريق نيكولاس . وفى يوم الحفلة دخل المدرج الذى ستقام فيه الحفلة ..

كانت هناك عدة مئات من الطلبة ، وكان هناك من يجهز المسرح بالآلات الموسيقية تمهيدا لبدء الاحتفال .

وبينما هناك حالة شديدة من الفرح والاستبشار ، والاستعداد للاستمتاع .. دخل مجموعة من الطلاب الى المدرج فيما يشبه الاقتحام .. وخلال دقائق كانت المقاعد تطير فى الهواء ، وكانت كشافات المدرج العالية تكسر ، وكانت الجنازير قد نسفت الآلات الموسيقية التى فر أصحابها فورا .. وخلال دقائق تالية كان سيمر يختلى بنفسه ، ويدون فى النوتة ملحوظاته عما حدث ، ويكتب بكل دقة التعبيرات التى ينطق بها الملتحون .

عندما وصل هذا التقرير التى نيكولاس كان فى حالة من السعادة لا توصف ، ليس فقط لأن هذا هو أول تقرير يصله من سمير .. ولكن لأنه قرأ المكتوب ، وأدرك أن عميله سوف يغرقه بالكثير .. غير أنه كتم فرحته ، وطلب من سمير جزء اكبر من العمل .. وقال له : «المطلوب الآن أن نعرف كم مرة حدثت مثل هذه الأمور ، وكم مصاب سقط ، ومن الذى يقوم بها ، ما هو تصنيفهم ، وأى أسلحة يستخدمونها ، وكيف تتعامل معهم ادارة الجامعة ، وما هو انطباع الطلاب لما حدث .. وكيف ينظرون بعد ذلك للملتحين ، والى أى مدى هم مقتنعون بما حدث ؟» .

فى هذا اللقاء أعطى الضابط لعميله رقم تليفون على ورقة صفراء .. وقال له : سمير عندما تكون جاهزا بهذه الدراسة اتصل بى .

وكان غريبا للغية أن سيمر اتصل به بعد يومين .. وبعد أن قال «هاللو» .. أضاف فى وضوح.. انا جاهز !

وتم لقاء جديد .

قال الضابط الذى اتفق مع سمير أن يناديه ب «تونى» : «إننا لا نعلب .. كيف يمكن أن تعد دراسة هامة من هذا النوع خلال يومين فقط .. إنهما لا يكفيان حتى لكتابتها؟» .. ورد سمير وهو يشعر بالانجاز اكثر من إحساسه بخطورة التحذير : «إننى لم أهدأ خلال اليومين ».. « فعلت كل شىء ، وتجولت في أغلب كليات الجامعة ، وقابلت كثيريين من الطلاب .. لقد اقنعت بعضهم بأننى انظم حفلا جديدا ، وأعربت لهم عن مخاوفي من أن يهاجم الحفل أعضاء الجماعات المتطرفة فسمعت قصصا كثيرة» .

ولأن العملية كانت فى بدايتها لم تلفت الأنظار بعد .. تجرأ «تونى» وفتح الأوراق ، وبدأ يقرأ .. كان يريد أن يتأكد من أن سمير لم يخدعه ، ولا يحاول أن يحقق انجازا وهميا ليكسب ثقته .. وعندما قرأ تأكد أن ما يقوله عميله صحيح الى حد بعيد : كلية دار العلوم معقل هام للجماعات الاسلامية ولهذا فإن الحفلات هناك ممنوعة تماما .. وطلاب الكلية الذين يرغبون فى حضور هذه الأنشطة يحجزون مقاعد فى كلية التجارة .. الطلاب العاديين يسمعون تلك القصص ولا يهتمون بما حدث .. أعضاء الجماعات المتطرفة يعتبرون الموسيقي رجس من عمل الشيطان .. وفى مرة كان السلوك المضاد للحفلات هادئا ، دخل المتطرفون حفلا وأمسكوا بالميكرفون وقرأوا القرآن .. فصمت الجميع ، ثم خرج المتطرفون ، وعادت الموسيقى مرة أخرى» .

حدث هذا فى أحد مطاعم وسط المدينة .

. كان «تونى» جريئا الى درجة أنه بدأيناقش سمير فيما كتبه بصوت شبه مسموع ، وكان يعتقد أن كل شىء على ما يرام ، خاصة وأنه غير معروف لأحد فى مصر كلها .. وبالتالى فإن

أحدا لن يلتفت اليه فى ذلك المكان الذى يتواجد فيه السائحون بكثرة .. لكن الصدفة هى التى وضعت أمامه «ريكا» .. وبالتالي فإن مصر أمسكت بالخيط الأول لهذه العملية من اللقاء الثانى .

و«ريكا» هذا شاب مصرى اسمر بيضفر شعره على الطريقة الافريقية .. ويرتدى البلو جينز ، ولا يستحم إلا كل فترة طويلة ، ولا يغير ملابسه تقريبا .. إنه نموذج من الشباب «الخمرتى» الذى يظهر كثيرا فى وسط المدينة ، يبحث عن سائح يتعرف عليه ، يأخذ منه دولارا ، أو يأكل على حسابه ، أو يشترى له ساندوتش ويربح من وراءه بعض القروش .. إنه واحد من عشرات مثله ينقبون عن فرصة يمكن أن يلقى بها القدر فى الطريق ، فيصادفون سائح أو سائحة .. يمكن أن يرسل له تأشيرة فيترك مصر الى مالا نهاية .. لذلك فإنه لا يملك من حطام الدنيا أى شيئ يمكن أن يفيده ، مجرد لغة ، وبعض القصص التى يرويها ليسلى بها السائحين ، وبعض جمل الغزل التى يداعب بها السائحات .. وأذن تبحث دائما عن كلمة «أمريكا» .. حلمه الدائم .

وقد كانت المناقشة بين سمير وتونى قد وصلت الى هذا الحد .. الحديث عن الخدمات التى يقدمها سمير للولايات المتحدة .. فقد كان تونى يعيد عملية الشحن المعنوى لسمير .. وعندما سمع «ريكا» الأحرف الذهبية الثلاث التى يحلم بها «u.s.A» ضبط اتجاه عقاربه ناحية «تونى» وبدأ يتابعه .

هكذا سجلت صورته فى ذهنه .. وانتظر «ريكا الوقت الملائم الذى يمكن أن يصادف فيه «تونى» مرة أخرى .. لاسيما وأنه سمع ضابط المخابرات الأمريكى يتفق مع سمير على موعد جديد فى نفس المكان .

فيما بعد مضى سمير الى عمله مرة أخرى . عاد ينفذ التعليمات التى تلقاها من تونى بكل دقة .. بالحرف .. فاتجه الى شبرا ، واتفق على اعادة دهان الشقة من جديدة .. وبدا وكأنه سيبقى مستقرا فى مصر بشكل كامل .. ولهذا فإنه استغل أول فرصة اتيحت له وتحدث مع أحد الجيران الذين يعرفون «إباه» عن أنه «كان بشوق دائم ليرى بلده» .. «صحيح ان أمريكا دولة جميلة .. كل فرد يفعل فيها ما يشاء .. ولكن مصر فى النهاية أم الدنيا» . وقد تعجب الجار من هذا الكلام كثيرا .. فقال له : «ألا تنوى العودة للولايات المتحدة» .. ورد سمير بالنفى .. وقال : «من المؤكد أننى سأقوم بزيارات متقطعة لوالداى .. ولكنى هنا أشعر بالحنين أكثر ، افتقد هذه الحميمية مع الناس»

وبدا وكأنه يتكلم من قلبه ..

وبدا وكأنه يتحدث الصدق .

لكنه فى الواقع ، من داخله ، لم يكن يؤمن بأى شيء أخر فى الدنيا سوى أمريكا .

■ ■

وعاد سمير الى اخلاصه الأبدى ، عمله الذى يكلفه به «تونى» .. وقد كان التكليف فى هذه المرة ضيقا للغاية ،ليس مثل المرة السابقة مفتوحا .. إذ قال له الأمريكى «أريدك أن ترسم لى صورة كاملة لكافة التيارات فى كلية الطب ، خاصة وان معركة الانتخابات الطلابية تدور الآن» .

وفتح سمير «النوتة» .. وبدأ يسجل :

بالحنين أكثر ، افتقد هذه الحميمية مع الناس»

وبدا وكأنه يتكلم من قلبه ..

وبدا وكأنه يتحدث الصدق .

لكنه فى الواقع ، من داخله ، لم يكن يؤمن بأى شىء أخر فى الدنيا سوى أمريكا .

■ ■

وعاد سمير الى اخلاصه الأبدى ، عمله الذى يكلفه به «تونى» .. وقد كان التكليف فى هذه المرة ضيقا للغاية ،ليس مثل المرة السابقة مفتوحا .. إذ قال له الأمريكى «أريدك أن ترسم لى صورة كاملة لكافة التيارات فى كلية الطب ، خاصة وان معركة الانتخابات الطلابية تدور الآن» .

وفتح سمير «النوتة» .. وبدأ يسجل :

«فى كثير من المحاضرات يستسلم الاساتذة لرغبة الطلاب بالملتحين فى أن يبقى الطلاب والطالبات منفصلين عن بعضهم البعض . ففى كلية الطب ليس هناك أى تيارأخر ملحوظ بخلاف هؤلاء .. وهم من داخلهم ينقسمون على بعضهم .. بينهم الاخوان المسلمين وبينهم الجماعة الاسلامية .. ويقال أن فيهم أعضاء من تنظيم الجهاد .. أحيانا الاحظ أنهم يتشاجرون .. ولكنى أراهم يتوحدون فى حالة ما إذا جرت مناقشة مع شخص من أسرة طلابية يسارية اسمها النديم».

وفى اللقاء أخرج سمير مجموعة من الأوراق التى كتب فيها مثل هذه الملاحظات وأعطائها «لتونى» . وضعها بدوره فى جيبه فورا .. وما كاد يبدأ حديثه مرة أخرى مع سمير حتى هبط عليهما «ريكا» من السماء : «اسمى «ريكا» .. وانتوا اسمكوا إيه» . كان يتكلم معهما بالانجليزية ذات اللكنة الأمريكية حتى يذيب الحواجز كما يتصور . ولكن ابتسامته التى حاول أن يمهد بها لبقية الكلام لم تكن تكفى لازالة آثار المفاجأة .. كلاهما خاف ، كلاهما تحسس قلبه .. كلاهما ظن أن «ريكا ضابط مخابرات .. وكلاهما بدأ يحسب الكلمات التى سيقولها عندما يلقى القبض عليه بعد لحضات . لكن «ريكا» جعل هذه الأفكار تتناثر بعيدا عندما قال جملة «الخمرتى» المعروفة التى يحاول أن يبدأ بها التعارف : «إنك تشبه «جون» » .. ولم ينتظر الرد : «جون شاب جميل تعرفت عليه فى العام الماضى .. لم يكن معه دولار واحد ، ولم يكن معى أيضا» .. ومضى يكمل مونولوجه : «ولكننى أكلنا وشربنا وقضينا وقتا جميلا .. من أين أنت فى أمريكا» .

حاول «تونى» أن يلملم أطراف الموضوع .. فقال : من «كنتاكى» .. ثم أضاف : «ها ها» هل تعرف أحدا هناك . هنا أدرك «ريكا» أن الحوار قد بدأ فسحب مقعدا وجلس .

■ ■

فى بقية العام لم يتغير شىء كثير .. إنها فقط لقاءات بين تونى وسمير فى نفس المكان .. غالبا ما يقطعها «ريكا» الذى كان قد قيل له أن «تونى» رجل أعمال ، وأن «سمير» هو أحد معاونيه فى مصر . لكن هذه اللقاءات سرعان ما انتهت إذ كان على سمير أن يعود الى الولايات المتحدة فى اجازة الصيف .

■ ■

كان اللقاء فى واشنطن .. بعيدا عن الأبوين .. وفى شقة صغيرة داخل العاصمة الأمريكية قال تونى لسمير : «الآن نحن نريد أن نعود ومعنا سامى .. سوف نحتاجه» . واتصل سمير بأخيه ، فرد عليه أباه : «أهلا يا بابا .. انا هنا فى أمريكا .. أريد أن أكلم سامى» . سأله الأب : «هل أنت بخير .. لماذا لم تحضر « .. أه .. إنها تعلميات تونى» .

فى اليوم التالى كان سامى موجودا فى داخل نفس الشقة .. وكان «تونى» موجودا هو الآخر، ولكن بالإضافة الى اثنين أخرين من ضباط المخابرات الأمريكية .. قال «تونى» : «الآن أنتما فى دورة تدريبية لتتعلما كيف يمكن أن تجمعا المعلومات .. وكيف يمكن أن تكتباها ، وكيف يمكن أن توصلاها لى» ، وأضاف فى محاولة لتحفيزهما : «من الآن سيكون راتب سمير فى مصر ٤٠٠ دولار ، وراتبك أنت يا سامى ٣٠٠ دولار .. وأنتما تعرفان بالطبع أن بقية راتبكما يودع فى حسابكما هنا ، اننا لا نريد أن نلفت الأنظار إليكما» .

وقد سمير أن يسأل عن بقية المرتب .. لكن أخيه قطع عليه الطريق .. وسأل تونى فى سذاجة مفرطة : «هل بعد هذه التدريبات يمكن أن أصبح ضابطا فى المخابرات الأمريكية !» .. وابتسم تونى .. وقال : «بالطبع .ولكن عليك أن تجتهد» .

وفى واقع الأمر فإن التدريبات التى تلقاها كانت من البسأطة بحيث يجب ألا تذكر .. ولكن الشئ الأهم أن «تونى» دربهما على كتابة التقارير على نوع خاص من الورق .. وقال لهما : هذا الورق يذوب بمجرد أن يقترب منه أى ماء ساخن . ولهذا فنحن نضعه داخل زجاجة ترمس شاى.. إذا اقترب أحد منكما وشَشتما فى الأمر عليكما كسر الترمس فورا .. فينتهى كل شئ .

وربما بدا طريفا للغاية عندما جاء الشقيقان الى مصر فيما بعد وكلاهما يحمل «ترمس شاى».. وهو ما دفع أحد ضباط الجمارك لأن يضحك معهما قائلا : الناس من أمريكا يأتون بأجهزة تلفزيون فى حجم اليد ، وانتما تشتريان ترمس شاى . وضحكا .. فلم يكن أحد يتصور أن هذا «الترمس» هو خزان الخيانة»

■ ■

فى القاهرة مضى كل شيئ وفق ما هو مرتب له .. واتسع نطاق العمل .

ففى احدى المرات كتب سمير تقريرا جديدا عن الحالة التى ظهرت عليها الجماعات المتطرفة فى العام الدراسى الجديد «لا يتوقع حدوث أى تغيير فى الساحة الطلابية .. بل أن من المتوقع أن يسيطر المتطرفون تماما على الاتحادات خاصة وأن أحدا لا يعمل أمامهم .. وخاصة وأنهم ينفقون ببذخ ، ويعطون للطلاب الكتب باهظة الثمن بالتقسيط» .

وكتب سامى تقريرا هو الأخر عن شعور الطلاب بالاحباط .. وقد كان يتميز عن أخيه بأنه أكثر دقة يكتب كافة التفاصيل ، حتى القصص العاطفية بين زملائه كان يدونها : «أحمد ونادية طالبان فى كلية الآداب ، مرتبطان بعلاقة حب ، وكلاهما ناقم تماما على مصر لأن أحمد فقير ولا يعرف كيف يدبر تكاليف الزواج» .. وأضاف سامى «ان الطلاب لا يعرفون ما الذى سوف يفعلونه بالشهادات .. لا يوجد أمل فى وظيفة .. وإذا حصلوا عليها لن يكفيهم الدخل .. أحدهم قال لى : كل حاجة ماشيه بالكوسة . وآخر قال لى : بص شوف انا مافيش فى جيبى ولا مليم .. وزملائى يركبون المرسيدس» .

كان كل شئ يمضى وفق ما هو مرتب له .. إلا «ريكا» .. فقد كانت اللقاءات الطويلة التى تتم فى مطعم وسط المدينة قد إختزلت .. ولم يعد هناك سوى لقاء قصير يتم فيه تسليم الأوراق .. أحيانا فى دورة مياه المطعم .. وأحيانا أمام مطعم أخر مجاور .. وفى أحيان ثالثة أمام أحد الفنادق فى الهرم . وفى المرة الأخيرة كان «ريكا» موجودا بالمصادفة ، وفوجئ أن رجل الأعمال ومساعده يتهامسان بسرعة ويسلمان على بعضهما ويمضيان ..

لم يكن من الممكن أن يثير هذا في نفسه أي شعور بالريبة لولا أنه تكرر مرة أخرى أمامه ، ولسوء الحظ الذي صادفهما ، كان ذلك يحدث في الأماكن التي اعتاد أن ينتظر فيها زبائنه ليحتال عليهم .

ولعب الفأر في «عب» «ريكا» .. وكانت تلك أول قشة !

■■

كان السيناريو يمضي وفق فصول الخيانة .. سافر سامي وسمير مرة أخرى الى أمريكا ، وعادا مرة ثانية ليتابعا أعمال التجسس .. وما أن انتهى العام الدراسي حتى عادا مرة أخرى الى الولايات المتحدة في صيف ١٩٨٥ . وفي هذه الرحلة خاضا دورة تدريبية جديدة ، وعامرة بأكثر من مكسب .. فأولا منح «توني» للأخوين سبعة آلاف جنيه يشتريان بها سيارة صغيرة تسهل عملهما . قال : «هذا المبلغ يكفي سيارة متواضعة .. ليس من الضروري أن تشتريا واحدة كبيرة حتى لا تلفتان أنظار زملائكما في الجامعة » . وثانيا رفع راتب كليهما مائة دولار في مصر .. وكأنهما جاسوسان برخص التراب .. وفضلا عن هذا كلفا بجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات وفي أي اتجاه وبدون تكليف مباشر من توني. وبداية من ابريل ١٩٨٦ كانت التقارير متنوعة ومتعددة .. منها مثلا : تقرير عن موقف الجماعات الاسلامية من اسرائيل .. تقرير عن الأنشطة التي يقومون بها وتأثيرها على الناس .. تقرير عن عدد وأنواع المظاهرات في الجامعة .. تقرير عن وضع المسيحيين في الجامعات المصرية وهل يتميز عنه أعضاء الجماعات المتطرفة ثم أعدا .. دراسة متكاملة عن اسباب زيادة نشاط المتطرفين .. تقرير عن الاتجاه الناصري داخل الجامعة.. ملفات كاملة بملحوظات الجاسوسين عن أحداث الأمن المركزي عام ١٩٨٦ ..

ولم يقف الأمر عند هذا الحد .. لكنه اتسع أكثر ، فسافر سامي الى الصعيد وكتب تقريرا عن حالة المحافظات هناك يتضمن معلومات عن معاملة السكان هناك .. وعدم توافر السلع الغذائية ، وتقارير عن التعصب الديني والخلافات بين المسلمين والمسيحيين ودور الجماعات الدينية في زيادة حدة التوتر ، والصدام مع رجال الأمن .

لقد كانت رحلة الصعيد بالنسبة لسامي مثمرة للغاية .. إذ أنه عاد بمجموعة هائلة من التقارير.. وعاد أيضا من هناك بزوجة اسمها «فيفيان» .. لا يعرف كيف أحبها . ولم يسأل نفسه هل يحب قلب أدمن الخيانة – لكنه أحب بالفعل .. وسقط في هوة العشق .. فتحولت امرأته الى كاتمة أسراره . كان يظن أنها يمكن أن تصبح مثله .. أنها يمكن أن تسكت .

ولكنها لم تسكت .

وكانت تلك هي القشة الثانية –بعد قشة ريكا– والأخيرة .

■■

كانت كافة الخيوط قد تجمعت إذن ..

وكان من الضروري أن تبدأ الاجراءات القانونية لإغلاق هذه القضية ..

وكان من الطبيعي أن تبدأ تلك الاجراءات بمذكرة وضعها مسئول بجهاز الأمن القومي على مكتب النائب العام للحصول على إذن من النيابة بإلقاء القبض على بقية «الصيد» قبل أن يطير «مثلما طار الآخرون .

إن المذكرة التي قدمت في يوم ١٤ نوفمبر ١٩٨٨ لخصت القضية كلها تقريبا :

« .. وردت للهيئة معلومات تفيد قيام المتهم الأول سامى ابراهيم يوسف واصف بنشاط ضار بأمن وسلامة البلاد تتمثل فى اتصاله بأحد الأجانب حيث يمده بالمعلومات عن الأنشطة السياسية داخل الأوساط الطلابية بالجامعات المصرية وبعض المعلومات الاقتصادية والاجتماعية .. نظير أجر مادى» .

... وعند تلك النقطة طلب من النيابة الأذن بضبطه واحضاره .

فى نفس اليوم وقع المحامى العام إذن لنيابة أمن الدولة بإتمام عملية الضبط والتفتيش .

ويبدو أن سامى فى نفس الوقت كان يعد تقريرا جديدا لقد كان مثل أى جاسوس يعتقد تماما فى أن للخيانة عمر مديد . ولهذا فإنه كان يجلس فى غرفة مكتبه هادئا للغاية .. بالبيجاما .. أمامه الورق الخاص ، والقلم الحبر .. وكوب الشاى الساخن .. وترمس الشاى .. وقد كان فى تلك اللحظة التى كانت قوات الأمن تصعد فيها سلم البيت فى هدوء تام يكتب تقريرا وافيا عن نتائج الانتخابات فى جامعة القاهرة ..

لقد كان مثيرا أنه عندما كانت العناصر الأمنية المصرية تقف بجوار المكتب كان سامى مستغرقا تماما فى عمله .. وكأنه فى خيانة حتى النخاع . وعندما أمسك أحد الضباط بالقلم الذى فى يده بينما هو فى طريقه لسكتة قلبية من هول الصدمة ، كانت الجملة التى انتهى من كتابتها «.. وهكذا فإن الأصوليون فى مصر مجددا أغلب مقاعد الاتحاد الطلابى .. لأنهم ......».

كان هذا هو النفس الأخير فى عملية «فيفيان» .

وكانت اجراءات محضر الضبط قد بدأت .

«.. تم ضبط المذكور وبتفتيشه عثر معه على جواز سفر أمريكى رقم ٤٧٩٤٠٧٧ وبطاقة تحقيق شخصية أمريكية رقم ٤٩٨٢٦٨٠ مبلغ ٥٠٠ دولار صادر من البنك المصرى الأمريكى .. وبطاقة صادرة من جمعية الجالية البريطانية ، وبطاقة أخرى من المركز الثقافى الأمريكى ، وكارنيه كلية طب القاهرة عام ١٩٨٧ ، وأجندة تليفونات معبأة بأرقام فى الداخل والخارج .. ومبلغ ١٢٥ جنيه مصرى ، وحافظة مفاتيح .

وفتح المحضر المبدئى .. فاعترف سامى فورا .. وكان طبيعيا أن يعترف طالما أن كل هذه الثقة التى كان يعيش داخلها انهارت فجأة .. قال : «ان شقيقه المتهم الثانى عرفه على نيكولاس الذى يعمل فى المخابرات الأمريكية» .. وأقر بأنه كان يريد التعرف على ما يدور فى الجامعات المصرية ، وأية معلومات عن الخلافات بين عنصرى الأمة» .

لقد كانت تلك ليلة من النوع القاسى .

كان سامى يتصور أن الدنيا سوف تقلب رأسا على عقب عندما يلقى القبض عليه .. على الأقل سوف يبقى فى شقته ، فتتصل السفارة الأمريكية ، وينتهى الأمر .. ولكن هذا لم يحدث ، ففى خلال دقائق ، وبعد عملية تفتيش دقيقة لشقته دفع به داخل سيارة ترحيلات وصلت به الى مقر نيابة أمن الدولة فى مصر الجديدة .. وهناك بدأ تحقيقا مبدئيا فى القضية .. سرعان ما انتهى ، لأنه كان يعترف بمنتهى البساطة .. كان يتصور أن تلك الاعترافات غير هامة طالما أن التليفون الآتى من السفارة الأمريكية سيرن بين لحظة وأخرى .. كانت خبرته ضعيفة لدرجة أنه لم يكن يدرك أن أى جهاز مخابرات فى العالم يتخلى عن عميله بمجرد سقوطه فى أغلب الاحوال.

لكن أصعب شىء عانى منه فى تلك الليلة هو احساسه بأنه لا شىء .. كان يبحث فى نظرة

من القوا القبض عليه عن الاحساس بأنهم عثروا على كنز ثمين .. عميل للمخابرات الأمريكية . لكنه لم يجد شيئا فى العيون المحدقة فيه .. ربما لم يقرأ فيها سوى تعبير واحد هو أنه بلا قيمة.. جاسوس «بستميت دولار» !

وفى واقع الأمر لم يعانى سامى من دقة التحقيقات ، ومن غياب تليفون السفارة الأمريكية ، ومن احتقار الذين قبضوا عليه ، ومن سخرية الجنود الذى يحرسونه .. لم يعانى من كل هؤلاء بقدر ما عانى من تلك الأسابيع التى قضاها فى انتظار المحاكمة داخل سجن ليمان طره ..

إن أحدا لم يلمسه ..

إن أحدا لم يكلمه ..

إن أحدا لم يبصق -حتى- عليه ..

وقد كان هذا سر عذابه .

ففى السجن كان هناك عشرات من السجناء السياسيين .. كان هناك عددا من المتطرفين .. وبعض الناصريين ، والمحكوم عليهم فى قضية ثورة مصر ، وبعض المتهمين فى قضيا الكسب غير المشروع ، وبعض الطلاب المعتقلين .. خليط سياسى من كل نوع كان هو النشاز الوحيد بينهم ، الجميع اشتم رائحته بمجرد أن دخلت السيارة التى ترحله الى فناء السجن «الكل أدرك أن هناك هائن»

ولو أن الأمر اقتصر على نظرات الاحتقار .. لو أنه اقتصر على الشتائم التى كان يقذف بها كلما رآه أحد .. لو أنه اقتصر على أن يلقى له السجان بوجبة الطعام وكأنه يتعامل مع كلب .. لو أنه اقتصر على أن يدفع دفاع للانطواء .. لو أنه اقتصر على أن أحدا لا يعيره أى اهتمام إذا مر من جانبه .. لو أنه اقتصر على أن السجناء يعاملون تجار المخدرات أفضل منه .. لو أنه اقتصر على كل هذا لهان الأمر .

لكن المشكلة أنه صادف فى اليوم التالى له فى السجن بعضا من الطلبة الذين كان يقترب منهم ليجمع المعلومات . وعندما صادفهم هرب داخل نفسه ، عزل ذاته بعيدا ، فرض على شخصه حبسا انفراديا .. وبقى ينتظر المحاكمة بأسرع وقت .. بقى يحلم بالاعدام حتى لا يقضى وقتا أطول فى الهروب من هؤلاء .

لكن محكمة أمن الدولة لم تحقق له أمنية الاعدام .

وبدأت المحاكمة ..

بدأت جلسات حساب الوطن لإبنه الضال .

كان هذا فى يوم الثلاثاء ١٨ يونيو ١٩٨٩ .

وكان سامى واقفا وحيدا فى القفص .. تائها .. لا يميز من يجلسون أمامه فى القاعة المقدسة التابعة لمحكمة أمن الدولة العليا -طوارئ- كان يرتدى «تى شيرت» أبيض وبنطلون جينز سكرى.. تميزه نظارته ، بينما يجلس على المنصة أعضاء هيئة المحكمة الرئيس ، المستشار سعيد محمود .. والعضوين سعد عادل رشدان وأحمد البسيونى الشرقاوى .. وكلاهما مستشارا فى محكمة استئناف القاهرة.. فضلا عن ممثلى النيابة السيد / على الهوارى ، السيد / مصطفى صفوت .. وفى المقابل كان هناك محامى موكل عن المتهم هو الدكتور حسن الابراشى ، ومعه الأستاذ أحمد جمعة .

ورغم أن الجلسة كانت علنية ، إلا أن الحاضرين كانوا قليلون للغاية ، على خلاف الهواية التى يفضلها المصريون بحضور جلسات المحاكمات . ولكن يبدو أن الكثيريين لم يتصوروا أنه لازال هناك تجسس وأنه لم يزل هناك جواسيس . غير أن الذين حضروا فى القاعة كانوا يودون أن يسمعوا الحكم فورا .. ولم يكن بينهم ولا شخص واحد متعاطف مع هذا الشاب الواقف فى القفص يواجه تهمة الخيانة ، باستثناء أمه التى كانت بشرتها غارقة فى لون أصفر من شدة الهلع.

ودارت عجلة القانون .

وتلى قرار الاتهام ضده

١- سامى يوسف ابراهيم واصف .

٢- سمير يوسف ابراهيم واصف .

٣- نيكلولاس إدوارد رينولوز .

٤- ڤيڤيان ماهر زكى يونان .

.. أولا : المتهمان الأول والثانى .

« .. تخابرا مع من يعملون لمصلحة دولة أجنبية بقصد الاضرار بمركز مصر السياسى ومصالحها القومية بأن اتفقا والمتهم الثالث وآخرين من العاملين بجهاز مخابرات الولايات المتحدة الامريكية على مدهم بمعلومات وبيانات وتقارير عن الأوضاع السياسية والقومية الداخلية للدولة فى سبيل ما اتفقا عليه وحصلا على دورات تدريبية بشأن سبل التوصل الى هذه المعلومات ويكفيه تجميعها بمعرفة مندوبى هذه الدولة ثم قاما بتزويدهم بها على النحو المبين بالتحقيقات ..» .

كان سامى يسمع هذا الكلام وكأنه يرى قصة السنوات الخمس كلها أمام عينيه ، لكنه أبدا لم يكن يتصور أن الأمر سينتهى به الى أن يسمع رئيس النيابة يصف ما قام به مع أخيه بتلك الطريقة ..

« .. ب – قبلا وأخذا ممن يعمل لمصحلة دولة أ:جنبية أمولا وفوائد بقصد ارتكاب أعمالا ضارة بالمصالح القومية للبلاد بأن تسلما من المتهم الثالث ، و ٤٠٠ دولار شهريا للمتهم الثانى ، وسبعة آلاف جنيه مصرى ثمن سيارة خاصة فضلا عن قيمة تذاكر سفر لعاصمة الولايات المتحدة الأمريكية ، ونفقات الاقامة بها خلال فترات الدورات التدريبية مقابل امداده بالمعلومات التى تضر بمركز البلاد السياسى ومصالحها القومية ..» .

ثانيا : المتهم الثالث .

« .. أعطى للمتهمين الأول والثانى المبالغ المالية والعطيات المبينة بالتهمة السابقة بقصد ارتكاب عمل ضار بمصالح قومية للبلاد ..» .

ثالثا : المتهمون الأول والثانى والثالث .

« .. اشتركوا فى اتفاق جنائى فيما بينهم ومع آخرين من العاملين بجهاز المخابرات الأمريكية الغرض منه ارتكاب الجريمتين المنصوص عليهما بالمادتين ٧٧ و ٧٨ من قانون العقوبات ...» .

رابعا : المتهمة الرابعة .

«.. علمت بارتكاب المتهمين الأول والثانى بجريمة التخابر مع دولة أجنبية وتقاضيهما فوائد نظير ذلك من مندوبها ولم تسارع الى ابلاغ السلطات المختصة» .

انتهت النيابة من تلاوة قرار الاتهام .. فنادى الحاجب على المتهمين ، ولم يرد سوى «سامى».. فنادى الحاجبان على المتهمين ، ولم يرد سوى «سامى» .. فقد كان هو وحده الموجود فى القاعة من الأربعة .

وانتهى الفصل الأول من المحاكمة «بتأجيل الجلسة الى يوم ٢٠ يونيو لاعلان المتهمة الأخيرة مع استمرار حبس المتهم الأول ، وعلى النيابة احضاره من السجن واعلان باقى المتهمين» .

فى تلك اللحظة التى تلى فيها قرار التأجيل وقفت أم سامى بجانب القفص الحديدى ، وقالت له وهى تحاول أن تغالب مشاعر الخوف : «تأكد أنك ستخرج من هنا» .. وقال المحامى : «فقط عليك أن تنكر تماما ما قلته فى التحقيقات» .

وسحب سامى من القفص ، ودلف به جندى أمن مركزى ، وصول الشرطة الى سيارة بوكس زرقاء أخذت طريقها الى ليمان طره مرة أخرى .

لكنها سرعان ما عادت به يوم الخميس ، حيث بدأت وقائع الجلسة الثانية .

سأل رئيس المحكمة المتهم «سامى» : «يا سامى .. ما هو قولك فى التهم المنسوبة إليك ؟» .. فاستجمع الجاسوس كل قواه ، لينسى كل هذه السنوات من التجسس ، وكل ما قاله فى النيابة.. وقال : لا .. غير صحيح .. أنا لم أفعل ذلك» . وقالت النيابة أنها تكتفى بأقوال الشهود فى التحقيقات .. وفضت الأحراز بعد أن تأكدت المحكمة من صحة الاختام عليها .

لكن الجلسة أبت أن تمض بدون دراما .

فوقف على الهوارى رئيس النيابة يحاول أن يجد كلمات مناسبة ، فبحث فى رأسه ، وعبث فى كافة ملفات القضايا التى ترافع فيها ليجد الفاظا مناسبة ، لكنه لم يجد أمامه أقسى من أن يقول منفعلا : ان الأوراق تصور لونا من الجحود على الوطن من بعض أبناءه .. كان فضل مصر عليها كثيرا فى كل الأوقات .. وكانت خيانة وطنها من المتهمين الأول والثانى ، فاستبدلا الخير بالشر والقلب العاشق بخيانة الوطن .. انجذب الشقيقان فى الجب الأزرق .

ومضى يصف الجريمة من الناحية القانونية :

«إن المتهم الثالث ضابط فى المخابرات الأمريكية ، جند المتهمين بأجهزة المخابرات الاجنبية .. والمعنى الحقيقى للتخابر كما ورد فى النص الفرنسى المأخوذ عنه القانون المصرى هو كل اتصال يتم بين المتخابر مع المتخابر معه .. ولجريمة التخابر كنهان أحدهما مادى والآخر معنوى .. وأما المادى فهو أنه يجب أن يكون هناك اتصال مع طرف ثانى هو الدولة الأجنبية أو أحد يعمل لمصلحتها ، يسوده التعاون و التفاهم .. وهذه العناصر متوافرة فى تلك الدعوى « .

كيف ؟

قال ممثل النيابة : لقد ثبت ذلك للمخابرات المصرية وتحرياتها ومن اعترافات المتهم نفسه .. فالاتصال قد يكون عام ، أو على مراحل .. شفوى أو تحريرى .. صريح أو بالرمز .. مباشر أو غير مباشر . ويدل على ذلك ما قاله سامى فى ص ٤ من التحقيقات .. «أنا عرفت أن أخى على صلة بشخص أمريكى اسمه «تونى» . وفى ص ٦ يقول «فى ذلك الوقت كنت مستجد ، وكنت أحصل على المعلومات وأنقلها لأخى شفاهة ، وينقلها هو بدوره . وهو بذلك يتحدث عن المرحلة الأولى التى تمت عن طريق أخيه سمير . لكنه تحدث بعد ذلك عن الاتصال المباشر بينه وبين المخابرات الأمريكية .. حيث أجرى له امتحان .. وتعرض لجهاز كشف الكذب .. حتى انه يقول :

«أخى سمير عرفنى هناك بتونى وأجرى لى اختبار كشف الكذب ، ونجحت فى الامتحان» .. وقال ممثل النيابة : انه فى مرحلة أخرى يتحدث أيضا بصورة ثانية عن اتصاله بجهاز المخابرات الأمريكية ، عن طريق الدورات التدريبية على يد خبراء أمريكان فى عامى ٨٤ و ١٩٨٥ ، فيقول : تدربنا على كيفية الحصول على المعلومة ، وفى شوارع واشنطن تدربنا أيضا على كيفية تفادى رقابة المخابرات المصرية ، وكيفية تسليم المعلومات .. وكيف يمكن أن نستخدم طريقة ABC فى ذلك» . ويقول على الهوارى فى المحكمة : لقد شرح ذلك ، وكتبه فى ورقة مرفقة بملف القضية .

ثم تأتى المرحلة الثالثة .

قالت النيابة : «فى صيف ١٩٨٥ تدرب على الأساليب الحديثة ، وعلى كيفية استخدام سيارة لنقل المعلومات شفاهة أو بكتابة تقارير .. وبدأت لقاءات مباشرة بينه وبين مندوب المخابرات فى أوقات وأماكن لا يشاهدهم فيها أحد الى أن وصلت لدورة مياه فى مطعم بوسط البلد .

إذن ثبتت التهمة بلا جدال كما تقول النيابة فى مرافعتها : «وهذه الجريمة تخابر فى زمن السلم ، بمعنى انه قد تكون العلاقة مع الدولة سليمة وطيبة» . ولكن المتهم اتصل بضباط المخابرات ، لاسيما وأنه يقول فى ص ٥٨ من التحقيقات : عرفت من أول الأمر أن تونى يمثل الحكومة الأمريكية وفهمت ذلك من تصرفات سمير نفسه .. وقد طلب معلومات تهم الحكومة ولا تهم الشعب الأمريكى وهو يقول إن. والناس الذين قابلتهم فى واشنطن مع سمير هم أيضا ضباط مخابرات ، وقد عرفت ذلك جيدا من الأعمال التى دربونا عليها» .

وفى ص ٦ .. يقول : أنا وافقت على القيام بما طلبه منى شقيقى وبدأت أجمع المعلومات المطلوبة .

وفى ص ٨ .. يقول : اجاباتى على جهاز كشف الكذب كانت صحيحة .

وفى ص ٥٩ : يقول : بدأت أنقل المعلومات لأمريكا وشعرت برغبة كبيرة فى ذلك . وفى ص٨١: يقول : أصبحت واحد من هؤلاء .. وصرت عنصر فى المخابرات الأمريكية . .

ومضت النيابة تصف الجريمة بأوصافها القانونية : لقد أعترف المتهم ، وللإعتراف شروط متوافرة فى هذه الدعوى .. فقد اعترف سامى على عن نفسه وذكر القصة كلها ، بلا أدنى لبس .. فهو يقول فى ص ٢٢ «أنا اتكلم بصراحة» . وقد ثبت أيضا من أقواله أنه لم يتعرض لأى اكراه .. إذ سئل : هل آكرهك أحد على الاعتراف فقال لا .. هذه هى الحقيقة .

... ثم ..

ثم أن الاعتراف مؤيد بالتحريات وأقوال زوجته ڤيڤيان التى قالت مثلا «سامى قال لى كذا .. وكذا » .. وذكرت كل شىء . وهناك كذلك الأوراق التى كان يكتبها سامى أثناء الاستجواب ، والترمس الذى كان يستخدمه فى التجسس لاختبار الأوراق التى كانت تذوب فى الماء .

هنا ، أحس ممثل النيابة انه قد انتهى من شرح كافة أركان القضية .. شعر بأنه يكاد أن يأخذ للوطن بحقه من الخائن .. لكنه لم يعد للجلوس على مقعده ، قبل أن يطالب المحكمة بتوقيع أقسى عقوبة على المتهمين .. من الأول وحتى الرابعة .

كان كل شىء قد سقط .. ڤيڤيان .. والترمس .. والأوراق .. والتقارير .. والشبكة كل شىء كان يقف ممثلا فى قفص محكمة أمن الدولة فى شخص سامى واصف .. كل أركان التخابر متوافرة .. وجميع عناصر القضية هى حية تعيش فى ملف من خمسمائة ورقة يشهد على أن

الصداقة التي يدعيها الأعداء وهمية . ورغم ذلك مضى المحامى الذى وكلته «أم سامى» يحاول أن يهدم الموقف القانونى بلا جدوى .

إن الحديث الآن لا علاقة له بمنطق الخيانة أو الوطنية ، ولا علاقة له بالتجسس ، والصداقة ، أو أية معايير أخلاقية .. إن الحديث هنا مغلف بمنطق «محامى» دفعت له الأسرة نقودا لكى يخرج الجاسوس من القفص ، حتى لو كان هذا على حساب الأمن القومى .. ولهذا فإنه دخل فى العباءة السوداء .. عباءة الاحتراف ، ومضى يردد ما يجب أن يقوله أى محامى فى مثل هذه الأحوال .. مضى يدافع عن المتهم تماما كما لو أن هناك محام يعرف أن موكله ضبط بالمخدرات ولكنه يريد أن يحصل له على البراءة ، تماما مثل محام يعرف أن ركاب الباص ضبطوا يد موكله النشال فى جيب الموظف ولكنه يريد أن يفلت به كما تفلت الشعرة من العجين .

مضى يدافع دفاع «أكل العيش» .

قال : «إن الجريمة المنسوبة لموكلى فاقدة لركنيها المادى والمعنوى .. إن الركن المادى فى جريمة التخابر هو نقل الخبر الذى لا يتأتى به العلم إلا لخاصة الناس . أما الخبر المنشور فى الصحف والمجلات وعلى موجات الأثير فلا يمكن أن ينطوى على جريمة فى نظر القانون . أما الركن المعنوى فهو قصد الاضرار بالصالح العام .. ولا يمكن أن ينسب الى المتهم الاضرار بالأمن الخارجي للدولة إذا كان الباعث على نقل الخبر هو الحرص على استقرار النظام لا قلب النظام . وكان المتهم ينقل أخبار الجماعات الدينية وصداماتها مع الأجهزة المختلفة الى الولايات المتحدة لأن من المهم للولايات المتحدة استقرار السياسة المصرية . ولا تريد أن تكون مصر «ايران أخرى» .. إن المتهم لم يكن سوى مراسل صحفى» .

إذن كان المحامى يخلط الأوراق بمزيد من الأوراق .. شىء من هنا على اشياء من هناك .. همزة المتهم يعمل صحفيا ، ومرة هو يحرص على النظام .. ومرة ثالثة هو يجعل من الولايات المتحدة حريصة على الأمن فى مصر ، وكأن المخابرات الأمريكية جهاز أمن مصرى يعمل لصالح القاهرة وليس لصالح واشنطن.

ولكن خلط الأوراق لا يعنى أن المحامى توقف ، فقد ظلت القاعة صامتة هادئة ، تستمع إليه حتى ينتهى من هذا الدفاع المرير ، الذى لو سمعه طفل لا يعى شيئا لتحول فى اليوم التالى الى جاسوس يعمل مع جميع دول العالم بحجة «الحرص على استقرار مصر» .

قال المحامى : إن «تونى» ليس ضابط مخابرات . ولكنه مسئول عن الاخبار فى المجلة .. يبحث عن سبق صحفى ، يهم الناس ، ولأن المتهم يعيش داخل الجامعة بحكم الدراسة طلب منه القيام بذلك العمل السهل .. لقد كتب موكلى تقارير عن قلق شباب الجامعات على مستقبلهم بسبب البطالة .. واعتقد انه ليس عيبا أو جاسوسية تقديم هذه المعلومات الى دولة صديقة لمصر تقدم لها سنويا مليارى دولار كمعونات لحل مشاكلها . والحديث عن البطالة ليس سرا لا يعرفه أحد بدليل انه كان موضوع مناقشات الحزب الحاكم فى الشهر الماضى .. ثم أن المتهم لم يكن يتقاضى سوى ٣٠٠ دولار أليس هذا دليلا على أنه كان مراسلا صحفيا وليس جاسوسا . انه مبلغ بسيط جدا لا يمثل شيئا لشخص يعرض نفسه لعقوبة السجن والاشغال الشاقة .

فميا بعد صدر الحكم بالسجن على سامى .

ولكن المحامى وجد أن جزءا من وظيفته أن يدافع عنه فى الجرائد والصحف .. فقال : انه فعلا

لم يتعرض للتعذيب .. ولكن هناك طرق أخرى اكثر تاثيرا من الضرب .. وفى يقينى أن هذه القضية ملفقة ليكون المتهم كبش فداء . لماذا تركوا رأس الأفعى «تونى» الذى كان يتعامل مع المتهم ويتسلم التقارير منه ، وقيل انه ضابط فى المخابرات الامريكية ، يغادر مصر قبل القبض على المتهم بسنة كاملة . ثم أمسكنا بذيل الأفعى .. سامى واصف .. الأمر كله لا يخرج عن مقايضة الولايات المتحدة لتسليم مصر المهندس عبد القادر حلمى المعتقل هناك بتهمة تسليم مصر معلومات عسكرية عن صناعة الصواريخ .. لكننى اعتقد أيضا أن الولايات المتحدة لن تقبل بهذه المقايضة . لأن سامى ليس بعقل مفكر مثل عبد القادر حلمى الذى يعرف معلومات خطيرة لا تسمح امريكا بوصولها حتى لأصدقائها . ومعنى الافراج عنه هو اطلاق هذه المعلومات للجميع .

إن الحكم حتى - كما قال المحامى - كان سياسيا ، فكيف يحكم بعشر سنوات على ذيل الأفعى ، وبخمس سنوات على رأس الأفعى .

إنه اذن يعود يؤكد ان هناك افعى .. وان هناك رأس وذيل .. وبالتالى فإن هناك عمل غير مقبول تقوم به تلك الأفعى .

لكنه لم يقل مثل هذا الكلام فى قاعة المحكمة .

وقال كلا ما آخر وإن كان قد قاله سامى «انا ضحية المخابرات المصرية لتتم مبادلته بالمهندس المصرى عبد القادر حلمى المحبوس حاليا فى الولايات المتحدة على ذمة محاكمته بتهمة تهريب رقائق الكربون الخاص بصناعة الصواريخ» .

لكن المحاكم لا تقتنع بمجرد والكلام .. فالقضاة دائما ما يسمعون من الاقفاص صرخات يدعى فيها المتهمون أنهم أبرياء . لكن هذه الصرخات تصبح بلا معنى إذا لم تقرن بأدلة قوية .. ولهذا لم يمنع الكلام صدور الحكم :

باسم الشعب .

رئاسة محكمة أمن الدولة العليا -القاهرة-

القضية ٧٥ لعام ١٩٨٩ :

- المتهم فيها الماثل أمام المحكمة هو سامى يوسف واصف ، الطبيب السابق فى مستشفى القصر العينى .

- المتهم الثانى : سمير يوسف واصف - خارج البلاد .

- المتهم الثالث : نيكولاس ادوارد رينولاس - خارج البلاد

- المتهم الرابع : ڤيڤيان ماهر زكى يونان - لم تحضر

بعد الاطلاع على التحقيقات وأوراق الدعوى صدر الحكم الآتى :

أولا : معاقبة كل من سامى يوسف ابراهيم واصف وسمير يوسف ابراهيم واصف بالاشغال الشاقة لمدة عشر سنوات وتغريمه عشرة آلاف جنيه ومصادرة المضبوطات .. وذلك لما استند اليه.

وثانيا : معاقبة نيوكلاس ادورارد رينولدس بالاشغال الشاقة لمدة خمس سنوات وتغريمة خمسة آلآف جنيه .. وذلك لما اسند اليه .

ثالثا : براءة فيفيان ماهر زكى يونان مما اسند اليها .

رابعا : الزام المتهمين الثلاثة الأول بالمصروفات الجنائية .

صدر هذا الحكم وتلى علنا بجلسة يوم الخميس الموافق ٢٠ يونيو ١٩٨٩ .

توقيع رئيس المحكمة .

ثم ..

اقر الحكم بالنسبة للمتهم الأول سامى يوسف ابراهيم واصف والرابعة فيفيان ماهر زكى يونان .

توقيع : رئيس مجلس الوزراء عاطف صدقى .

■ ■

.. وحيث أن المتهمة من الثانى للأخير لم يحضروا جلسة المحاكمة رغم اعلانهم بأمر الاحالة وورقة التكليف بالحضور دون عذر مقبول ومن ثم جاء الحكم فى غيبتهم عملا بنص المادة ١/٣٨٤ . أ . ج . وحيث أن المتهم الأول حضر بجلسة المحاكمة وانكر ما نسب اليه ، وحيث أن النيابة العامة شرحت دعواها قائلة بإحالتها المنسوبة للمتهمين ثابتة فى حقهم من اعتراف المتهم الاول وأن جريمة التخابر وقد توافر لها ركنها المادى والمعنوى وأنها وقعت فى زمن السلم وشرح ظروف الدعوى وتلى مقتطفات من اعتراف المتهم الأول وكذا اعترافه وعلمه بأنه يتعامل مع جهاز المخابرات الامريكية وأنه لديه رغبة أكيده فى خدمة هذا البلد الذى يحبه ويرغب فى خدمته رغبة أكيدة وأنه تدرب على نقل المعلومات بالخارج وتقاضى مرتبات هو وشقيقه وتعرض لجهاز كشف الكذب بالمخابرات الامريكية بواشنطن . مما يقطع بتوافر الركن المادى والمعنوى لجرمية التخابر .

وحيث أن الدفاع الحاضر مع المتهم الأول شرح ظروف الدعوى وملابساتها قائلا ان اعتراف المتهم بالصورة الواراردة بالتحقيقات لا يطمئن اليه وأن الاعتراف المنسوب للمتهم اعتراف باطل وأن ما آتاه المتهم لا يشكل جريمة التخابر مع دولة أجنبية ولا تعدو المعلومات عن ملخص لما ينشر فى الصحف المصرية ولا جريمة فى نقل المعلومة للكافة وأضاف ان ما نقله المتهم الأول من معلومات ليس فيها أى ضرر بمصر وأن العلاقات بين مصر وأمريكا علاقات طيبة وانتهى الى أن الغرض من هذه القضية هو الرد على واقعة مماثلة حدثت فى أمريكا نسب فيها التخابر الى أحد المهندسين المصريين لصالح مصر ضد أمريكا والتمس الدفاع الحكم ببراءة المتهم الأول مما اسند إليه .

وحيث أن المحكمة تطمئن وترتاح الى أدلة الثبوت فى الدعوى والى صدق وصحة اعتراف المتهم الأول وأنها صادرة عن ارادة حرة ومن ثم تعرض وتلتفت عن انكار المتهم ودفاعه الذى قصد منه النصل من وزر جريمته الشنعاء .

وحيث أن ما لاذ به الدفاع من بطلان اعتراف المتهم الأول بالتحقيقات مردود عليه بأن الأوراق قد خلت من أى دليل على ما يدعيه من اكراه مادى أو أدبى فقد نفى المتهم بالتحقيقات وقوعه تحت أى نوع من الاكراه وأضاف بأن ما حمله على الاعتراف هو الندم على ما جناه فى حق مصر البلد الذى رباه وعلمه ورغبته فى التكفير عما ارتكبه فى حقها من آثام .

وحيث أنه من القول برغبة المخابرات المصرية فى استبداله بآخر مصرى متورط فى قضية تخابر فلا أساس له من واقع الأوراق ولا ظل لها فى الحقيقة .. ولم ترد على لسان المتهم أية كلمة واحدة بهذا الصدد . الأمر الذى يتعين معه طرح هذا الدفاع جانبا وعدم التعويل عليه .

وحيث أن اعتراف المتهم الأول قد تأثر بأقوال زوجته فيفيان ماهر زكى بالتحقيقات حيث قررت بصراحة ووضوح أنها فوجئت بعد زواجها من المتهم الأول بإخباره لها بأنه على صلة بجهاز

يتمثل فى جمعه معلومات تتعلق بالنشاطات الطلابية فى الجامعات المصرية وأنشطة ما يعرف بالجماعات الاسلامية وتزويد مندوبى هذا الجهاز بتلك المعلومات وكذا بأية مذكرات أو منشورات تعبر عن هذه الانشطة -كما اخبرها باتصاله بالمخابرات الامريكية عن طريق شقيقه المتهم الثانى سمير يوسف ابراهيم واصف الذى كان يمارس هذا النشاط وسافر معه الى واشنطن وحصلا من مندوبى المخابرات الامريكية على تدريبات على أعمال التجسس وطريقة الوصول الى المعلومات المطلوبة وكيفية توصيلها وتفادى الوقوع فى قبضة جهات الامن المصرية - كما أطلعها على الأوراق المسلمة إليه لكتابة المعلومات المطلوبة وكيفية توصيلها وما بها من خاصية الذوبان والتحلل فى الماء كما علمت منه بأنه وشقيقه يقومات بهذا العمل نظير رواتب شهرية كما حصل على ثمن سيارة لاستعمالها فى هذا الغرض وأضافت بأنها توجهت بصحبة زوجها الى واشنطن حيث أخبرها هناك بالتقائه مع مندوبين لجهاز المخابرات الامريكية وأن زوجها كان يسألها عن بعض المعلومات المطلوبة .

ولقد تأيد اعتراف المتهم الأول كذلك بما ضبط لديه وقدمه من أوراق وأدوات كان يحتفظ بها فى محل اقامته والتى حصل عليها وشقيقه من المتهم الثالث لاستخدامها فى أعمال التجسس وتدوين المعلومات المطلوبة عليها وكذلك ما تم ضبطه بحيازته وأقر به وقام بتصوير كيفية استخدامها وتسجيل ذلك بالصوت والصورة ولقد ثبت من تحليل الاوراق المضبوطة بحوزة المتهم الأول انها ذات الياف سليوليزيه قصيرة بها نسبة قليلة من المواد الجافة والمواد العينية التى تؤدى الى تماسك اليافها وانتظام سطحها ويتم التحكم فى ذلك اثناء صناعة هذه الاوراق ويمكن بسهولة التأثير على اليافها وقوة تماسكها بماء ساخن - وأنه استخدم الماء الساخن والمشروبات الساخنة من خلال ترمس مع محلول الفضة المتواجد بالزجاجة الداخلية فى التفريغ الهوائى اثناء تحطيمه يهئ الظروف المناسبة لاتلاف الورق وتقطيع أوصاله الى اجزاء صغيرة لا يمكن جمعها أو اعادة ترتيبها وقرائتها .

ولقد ثبت من التحقيق أن المتهم الثالث باسم تونى كان قد سلم للمتهم الأول رقم تليفونه للاتصال به فى الحالات المستعجلة تبين انه أحد الأرقام المخصصة لاستعمال السفارة الامريكية فى القاهرة .

وحيث انه بما تقدم يكون قد استقر فى يقين المحكمة باطمئنان تام لا ريب فيه وقر فى وجدانها أن سامى يوسف ابراهيم واصف ، وسمير يوسف ابراهيم واصف ، ونيوكلاس ادوار رينولدز فى الفترة من سنة ١٩٨٣ وحتى ١٥ نوفمبر ١٩٨٨ بداخل جمهورية صر العربية وخارجها :

المتهمان الأول والثانى :

١- تخابرا مع من يعلمون لمصلحة دولة اجنبية بقصد الاضرار بمركز مصر السياسى ومصالحها القومية بأن اتفقا والمتهم الثالث وآخرين من العاملين بجهاز مخابرات الولايات المتحدة الامريكية على مدهم بمعلومات وبيانات وتقارير عن الاوضاع السياسية والقومية والداخلية للدولة وفى سبيل ما اتفقا عليه حصلا على دورات تدريبية فى شأن سبل التوصل الى هذه المعلومات وكيفية تجميعها بمعرفة مندوبى هذه الدولة ثم قاما بتزويدهم بها فى النحو المبين بالتحقيقات .

٢- قبلا وأخذا ممن يعملون لمصحلة دولة أجنبية أموالا وفوائد بقصد ارتكاب أعمال ضارة

بالمصالح القومية للبلاد بأن تسلما من المتهم الثالث مندوب جهاز مخابرات الولايات المتحدة الامريكية مبالغ مالية بلغت ٣٠٠ دولار شهريا للمتهم الأول و ٤٠٠ دولار شهريا للمتهم الثانى وسبعة آلاف جنيه مصرى ثمن سيارة خاصة فضلا عن قيمة تذاكر سفر لعاصمة الولايات المتحدة الامريكية ونفقات الاقامة بها خلال فترات الدورات التدريبية وذلك مقابل امداده بالمعلومات التى تضر بمركز البلاد السياسى ومصالحها القومية

المتهم الثالث :

اعطى للمتهمين الأول والثانى المبالغ المالية والعطايا المبينة بالتهمة السابقة بقصد ارتكاب عمل ضار بمصالح قومية للبلاد على النحو المبين فى التهمة الأولى .

المتهمون الأول والثانى والثالث :

اشتركوا فى اتفاق جنائى فيما بينهم ومع آخرين من العاملين بجهاز المخابرات الامريكية الغرض منه ارتكاب الجريمتين المنصوص عليهما بالمادتين ٧٧ و ٧٨ من قانون العقوبات على النحو المبين بالتهم السابقة ، الامر المشار بالمواد ٧٧/د ، ٧٨/أ ، ٨٢/ب ، ٨٣ من قانون العقوبات ويتعين لذلك أخذ المتهمين الثلاثة الأول على بما نسب اليهم تطبيق لمواد الاتهام وعملا بنص المادة ٧٢ أ/ج .

وحيث أن ما نسب للمتهمين من جرائم فقد جاءت مرتبطة ببعضها بحث لا تقبل التجزئة ومن ثم يتعين اعتبارها كلها جريمة واحدة والحكم بالعقوبة المقررة لأشد تلك الجرائم .

وحيث أن المتهمة الرابعة زوجة المتهم الأول ولم تشاركه فى أى عمل من الجرائم المشار اليها بل استنكرت من زوجها المتهم الأول مزاولة هذا النشاط ضد بلدها مصر وهددته بالانفصال إذا لم يقلع عن ذلك ومن ثم ترى المحكمة اعفائها من العقاب عملا بنص المادة ٣/٨٤ عقوبات وتقضى بذلك ببرائتها مما أسند اليها عملا بنص المادة ٣٠٤ / ١ أ.ج .

وبعد الاطلاع على المواد سالفة الذكر حكمت المحكمة حضوريا للأول وغيابيا للباقيين .. أولا : بمعاقبة كل من سامى يوسف ابرهيم واصف وسمير يوسف ابرهيم واصف بالاشغال الشاقة لمدة عشر سنوات وتغريمه عشرة آلاف جنيه ومصادرة المضبوطات وذلك لما اسند اليه . ثانيا : بمعاقبة نيكولاس ادوارد رينولدز بالاشغال الشاقة لمدة خمس سنوات وتغريمة خمسة آلاف جنيه وذلك لما أسند اليه ثالثا : ببراءة فيفيان ماهر زكى يونان مما اسند اليها . رابعا : بالزام المتهمين الثلاثة الأول بالمصروفات الجنائية .

صدر هذا الحكم وتلى علنا بجلسة يوم الخميس الموافق ٢٠ يونيو ١٩٨٩ .

توقيع : رئيس المحكمة .

■■

ملحوظة : نقلت وقائع القضية مع بعض التصرف الدرامى من ملف القضية فى المحكمة ، والذى سمح فيه للمحامين بالاطلاع عليه ، وقد حصلت على هذا الملف من أحدهم .. كما أن بعض ملخصات القضية نشرت فى كل من :

- مجلة روزاليوسف : اعترافات جاسوس جديد لأمريكا اغسطس ١٩٨٩ .
- مجلة المجلة اللندنية : الجاسوسان المصريان قصتهما الكاملة مع المخابرات الامريكية ١٩٨٩/٨/٩
- مجلة روزاليوسف مرة أخرى : تقارير جاسوس أمريكى عن الفتنة الطائفية .

ملحق وثائقى

حيثيات الحكم فى القضية ١٩٨٩/٧٥

«أمن الدولة العليا / طوارئ» .

الفصل الثالث

«العملية المكشوفة!»

جواسيس وشيوخ ومتطرفون

هذه واحدة من أكثر عمليات التسجسس وضوحا .. اللعب فيها على المكشوف .. كل طرف يعلن أنه يعمل وجميع الأجهزة تعلم . ولكن أصول اللعبة تقتضى الصمت ، ولو مؤقتا ..

انها العملية المكشوفة ، المثيرة ، التى من فرط غرابتها أعلن عنها فى بيان رسمى .. واعترف بها الجميع .

عملية الاتصال مع شيوخ الارهاب فى مصر .

وتلك العملية التى تمت فى عصر الرئيس مبارك جذور بعيدة ، تاريخ طويل من الاتصالات بين المتطرفين فى مصر والأمريكان فى واشنطن .. الفريق الأول يبحث عن دعم ، أو على الأقل حياد.. والفريق الثانى لا يريد أن تسبقه الأحداث ، ويفاجئ ذات يوم بمجموعة من الملتحين الذى لا يعرف عنهم شيئا قد حكموا مصر .

وقد كشف النقاب عن الجزء الأول من هذه العملية دون رغبة من المخابرات الأمريكية ، رغم أن وثائق العملية تحمل درجة «سرى للغاية» ورغم أن الوثائق تضم معلومات وآراء لم يكن أحدا يريد أن يكشفها . إلا أنها الصدفة التاريخية التى جعلت مجموعة أخرى من الملتحين تتسبب فى فضح مجموعة غيرها فى دولة أخرى .

ففى يوم ٤ نوفمبر ١٩٧٩ اقتحم مجموعة من الطلاب الايرانية مبنى السفارة الأمريكية فى طهران .. واحتجزوا عدة عشرات من الدبلوماسيين كرهائن طوال ٤٤٤ يوما ، حتى انتهت العملية فى يوم ٢٣ ديسمبر عام ١٩٨٠ بالطريقة المعروفة . وقد اسفر الأمر فى النهاية عن حصول الطلاب على كميات هائلة من وثائق محطة المخابرات الأمريكية فى أغلب دول الشرق الأوسط وبينها مصر .. وفى هذه الوثائق كانت هناك اسرار الاتصالات التى تمت بين الاخوان الامريكان فى عصر السادات، وهى العملية التى قدر لها أن تستمر بشكل آخر فى عصر الرئيس مبارك .

وفى واقع الأمر فإن الوثائق تكشف من أن المخابرات الأمريكية ترصد كل شىء فى مصر .. وبدقة .. وأنها بعد أن ترسل الى واشنطن تبقى نسخا منها محفوظة فى المحطة المخابراتية المعنية رغم مضى فترة طويلة على بعضها . ولهذا كان من الطريف العثور على وثائق تقارير عن المشير عبد الحكيم عامر الذى «اشتهر بحماية نفسه من عمليات الاعتداء على صلاحياته الخاصة فى القوات المسلحة ويتمتع بشخصية عسكرية لا سياسية» .. وتقارير عن عبد اللطيف بغدادى «رجل متمسك بمادئ الثورة ولديه توجه عملى ويدافع عن السياسة الرئيسية لمصر ويعارض المغامرات الخارجية» .. وتقارير عن اشرف غربال «أول سفير لمصر فى واشنطن بعد قطع العلاقات بين البلدين الذى كان مستشار صحفيا للرئيس السادات فى صورة علنية ومستشارا سريا له فى الشئون الأمريكية» .

إنها مجرد عينة .. والعينة بينة .

ولكن الوثيقة الأهم أحدث من كل تلك التقارير ، وقد اعدت فى عام ١٩٧٩.. وتقول : ان جميع السفارات الأمريكية فى العالم العربى تعمل كلها فى إطار اعداد دراسة عن الحركات الاسلامية فى كل انحاء الدول العربية فى ضوء التعليمات الموجهة إليها من زبجنو بريجنسكى مستشار الرئيس الأمريكى كارتر لشئون الأمن القومى ، لعرضها على لجنة العلاقات الخارجية فى مجلس الشيوخ «الحياة ١٩٩٢/٦/١٩٠» .

هذا إذن تكليف .

فما الذى تم فى مصر ؟

تقول الوثيقة : لقد عقدنا عدة لقاءات مع قيادات جماعة «الاخوان المسلمين» .. أنهم الجانب اليمينى المسلم المتشدد والذى يهتم بقضية القدس ويتعاطف مع الفلسطينيين ويشعر بالمرارة من استمرار احتلال اسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة . وقد لاحظنا أن هناك مناخا من العداء فى صفوف التيارات الاسلامية المصرية للولايات المتحدة لأنها وقعت اتفاقي كامب ديفيد . وينبغي وضع المسلمين المتشددين فى مصر تحت المراقبة كونهم يشكلون أحد مفاتيح الاستقرار السياسي لهذا البلد . وإنى أرجو مع ذلك أن تلين واشنطن موقفها من المسلمين الأصوليين فى مصر . ومن المبالغ فيه الحديث عن العدائية والاحساس المفرط لدى هذه المجموعة . علينا أن نعزز وجدنا لتطوير حوار مثمر ومخلص مع قادة الاخوان المسلمين بدلا من العمل بأسلوب المخابرات».

فى هذه الاثناء كان حلقة الاتصال هو الشيخ عمر التلمسانى -المرشد العام لجماعة الاخوان المسلمين .

وفى تلك الاثناء لم يكن ذلك معروفا .

أما فى الثمانينات والتسعينات فقد كان ذلك مفتوحا وعلى البحرى !

الى درجة أن نائب المرشد العام كان يزايد على الحكومة فى مصر وينشر محضر لقاء سرى مع أحد مسئولى السفارة الأمريكية فى مجلة «المختار الاسلامى» .

إن تلك قصة أخرى سوف نعود اليها ..

إننا الآن مع تقرير أمريكي آخر عن الأوضاع فى مصر . أعده أحد محللى شئون الشرق الأوسط فى وزارة الخارجية الأمريكية «جريجورى ·ب· انتانديان» .. والمثير أن التقرير ترجم الى العربية ، ونشرته هيئة الاستعلامات المصرية ضمن سلسلة كتب مترجمة» الكتاب ٣٨٠٩ تحت عنوان «سعى مصر للزعامة العربية» .

والتقرير دارسة ملخصة للأوضاع فى مصر ، من العلاقات الخارجية الى الاوضاع الداخلية.. وقد وصف هذا التقرير الذى يوضع أمام صانعى القرار فى الولايات المتحدة وضع جماعة الاخوان المسلمين بأنه «شبه قانونى» .. «وهى وإن كانت تلقت رفضا متكررا لانشاء حزب سياسى .. إلا أن القاهرة سمحت للجماعة بالعلانية والاشتراك فى الانتخابات البرلمانية .. ولذلك تتبع جماعة الاخوان المسلمين سياسة ذات مسارين . فمن ناحيةتحاول اقامة دولة داخل الدولة ، ومن خلال مؤسساتها الكثيرة الخاصة بالرعاية الاجتماعية تبين للشعب المصرى أن الدولة العلمانية تزداد اهمالا لاهتماماته اليومية .

وأضاف التقرير: ان القاهرة تتحمل جماعة الاخوان المسلمين لعدة أسباب.. فقد اقام الرئيس مبارك شرعيته على مفهوم تحقيق قدرا من الديموقراطية لمصر. وطالما تبتعد جماعة الاخوان عن أعمال العنف فسوف تفتقد الحكومة جانبا من الشرعية إذا لم تسمح لأكبر حركة اسلامية فى مصر بالقيام بدور فى شئون الأمة . وبالاضافة إلى ذلك فإن جماعة الاخوان المسلمين تعد حصنا ضد الحركات الاسلامية الأكثر تطرفا -مثل الجهاد أو الجماعات الاسلامية التى ظلت تقوم باغتيال رموز النظام بين الحين والآخر وتثير الفتنة الطائفية طوال الحقبة الماضية .

وربما تنبع أهمية هذا التقرير العلنى فى أنه كان يمهد لما هو سرى .. عندما ارتفع صوت الرصاص ، وبدا للعالم أن اكبر دولة فى الشرق الأوسط تتجه ناحية المستنقع الذى يجره اليها

المتطرفون .. ولهذا بدأ الأمريكان الاتصال مع الاخوان مرة أخرى .

والمثير أن تلك الاتصالات التى بدأت سرية ، كشفت فجأة من الجانب الأمريكى ، صار الحديث عن الاتصالات علنيا اكثر من اللازم ، خاصة وأن الامريكان حرقوا فى أجهزة الاعلام كافة الاشخاص الذين كانوا على اتصال بهم ، وكتبوا اسمائهم ، فحولوهم بين يوم وليلة الى متآمرين . يسعون للسفارة الأمريكية كما تساعدهم فى محاولاتهم ضد الحكومة المصرية .

لهذا لم يكن غريبا أبدا أن يقر مأمون الهضيبى -المتحدث الرسمى باسم جماعة الاخوان المسلمين بالاتصالات ، دون أن يعلن مضمونها . وأن يستغل مصطفى مصطفى مشهور لقاءً بينه وبين احد موظفى السفارة الامريكية فى الحصول على مكاسب اعلامية بنشر المقابلة فى مجلة «المختار الاسلامى» .

قال الهضيبى واصفا اللقاءات «انها لم تزد عن لقائين أو ثلاثة فى السنة» .. ثم مضى يكشف مفاجأة أخرى وهو يضيف : «لقد حدث هذا على مدى خمس أو ست سنوات ، وكنا نقول لهم انهم يعملون ضد مصلحتهم وضد الصداقة مع الشعوب العربية والاسلامية فى سبيل دولةاسرائيل المخالفة للحق والحرية» .

وحسب نفس الرواية فإن هذه الاتصالات لم تكن جلسات حوار ، بقدر ما هى صفقات غير كاملة.. أو انها صفقات غير صريحة . وكمثال فإن الهضيبى قال ذات لقاء مع دبلوماسى أمريكى: انكم تتسائلون لو جاء الاسلاميون الى الحكم هل تكون علاقاتهم بالغرب طيبة ، والاحرى بكم ان تحسنوا علاقتكم بنا ، هل يفترض ان تقتلونا ونحن نصفق لكم ونقبلكم .. حسنوا علاقتكم بنا ، ومعاملتكم بعد ذلك لن تكون بيننا ضغائن .

من الجانب الآخر كان الامريكيون يبدون ناصحين للاخوان .. وقد قال أحدهم لمأمون الهضيبى : «إننا ننصحكم بالتأقلم مع الجميع فى مصر ، وبينهم الماركسيين .. عليكم أن تقبلو الكل» ، وقال الهضيبى : انهم يقولون ذلك لأنهم أبناء مجتمع ديموقراطى» .

وبدون أن يصف أحد هؤلاء الامريكان بأنهم جواسيس ، ولكن المتحدث الرسمى باسم الاخوان المسلمين تحدث عنهم ، وكأنه كذلك بالفعل .. وقال فى حوار صحفى مع مجلة «الوسط» اللندنية «١٩٩٣/٧/١٩» : انهم لا يظهرون حقيقتهم اطلاقا ، إنهم جامعوا معلومات فحسب» .

و .. «دارسون فى شكل نادر لكافة تفاصيل الحياة المصرية ، تاريخها وتاريخ المنطقة » .

و .. «يقينى انهم يجرون عملية مسح للمجتمع المصرى» .. «وأحيانا أشعر بحيرة وأتساءل عن هدف هذه العملية الضخمة وما هو الحد الذى يمكن أن تتوقف عنده» .. و «.. إن جميع هؤلاء يحملون تصاريح من هيئة الاستعلامات المصرية» .. و «يجوبون البلاد من أقصاها الى أقصاها ويدخلون الأماكن التى لا أستطيع أنا دخولها مثل مدينة صنبو فى اسيوط ، ومسجد الرحمة فى اسوان» .

«انهم يعلمون بالحوادث ويذهبون الى اماكنها قبل أن نذهب اليها» .

و ..

«لم استطع أن أعرف ما هو وجه اهتمامهم الواسع الذى يدفعهم الى هذا ، لكنهم حتما يعطون معلومات لجهات أخرى .

ورغم كل هذه الأوصاف والشكوك كان الهضيبى يجلس الى جامعى المعلومات الاجانب، ويبدأ

فى مدهم بالمزيد منها .. وحتى لو كانت هذه اللقاءات مجرد جلسات لإبداء الرأى ، فإن رأى مسئول فى جماعة اسلامية كبرى يعتبر أيضا معلومة .. وفى هذاالاطار ، ووسط اجواء من تلك الشكوك التى يشعر بها المتحدث الرسمى للاخوان فإنه لم يكن يجد مانعا فى أن يقول لموظف أمريكى فى السفارة : «نظام الدولة فى الاسلام يقوم على الشورى والاختيار ، وليس القهر .. ونحن نؤمن باختلاف وتعدد وتقدد وجهات النظر ، اننا لا نحمل حقدا لغير المسلمين يدفعنا الى اتخاذ موقف من الغرب ، وليس لدينا اتجاه عداء إذا حفظ الغرب حقوقنا ولم يحاول الاعتداء علينا وعلى عقائدنا ، أو اجبارنا على اشياء لا نؤمن بها » .

ومضى يكمل الرسالة التى كان يكرر الرغبة فى وصولها حتى لو تم ذلك عن طريق «جامع معلومات» : نحن نستطيع أن نعيش مع العالم فى هدوء وسلام ، نتبادل المصالح والأفكار ، والمعلومات والثقافات ، وايماننا لا يتزعزع بالحرية وحق الشعب فى اختيار الحكام ومراقبتهم عن طريق نوابه ، حتى الأمور العقائدية التى نعتبرالخروج عليها كفرا ،لا نستطيع أن نفرضها غلى غيرنا وما تختاره الغالبية الساحقة من الشعب تخضع له» .

كان المطلوب اذن أن يوصل الاخوان عن طريق هؤلاء الجواسيس ، أو جامعى المعلومات ، ما معناه أن «الاخوان شيء .. والمتطرفون شيئا آخر» .. وكانت تلك هى طبيعة الاتصالات فى البداية ، لكن الأمر تطور بعد ذلك وصار شيئا مختلفا .. تحول الى لقاء بين معارض سرى ، وجماعة غربية ، وأصبح الأمر اجتماعا للاتفاق وعقد الصفقات «الصريحة» من خلف ظهر الحكومة المصرية فى عهد الرئيس حسنى مبارك .

دعونا نعود الى القصة من البداية مرة أخرى ..

إن لها اكثر من بداية .

والنقطة التى نعود اليها تثبت أن الحكومة فى مصر هى التى مهدت طريق اللقاء بين المتطرفين والأمريكان .. ثم كان من الغريب أن تفاجئ فيما بعد بهم وهو يضربونها بالقنابل . فقبل اغتياله بثلاثة اسابيع قال الرئيس السادات لمحطة «ان . بى . سى» الامريكية «دعونى اكشف لكم سرا .. منذ اللحظة الأولى التى بدأت فيها أحداث افغانستان اتصلت بى الولايات المتحدة كما تشارك فى دعم المجاهدين ضد الحكم الشيوعى فى كابول ، وعلى الفور بدأت عملية شحن الاسلحة على متن الطائرات الامريكية من هنا .. من القاهرة» .

وفيما بعد لم يكن غريبا أن يتحول هؤلاء المجاهدين -كما سموا أنفسهم- الى عناصر فى أيدى المخابرات الامريكية . وقد قال الكاتب محمد حسنين هيكل لمجلة روزاليوسف : «اى واحد من هؤلاء كان يستطيع أن يعرف أن الذى يدربه هو جهاز المخابرات الأمريكية ، لكنه تغاضى عن ذلك فى سبيل الاسلام .. كان هناك ما بين ١٥ ألف الى ٢٠ الف شاب عربى تعرضوا لهذه التجربة وعاشوها» .

وينقل عادل الجوجرى فى كتابه «عمر عبد الرحمن والامريكان» «ص٤٦» «انه فى ربيع ١٩٨٠ استقر رأى وليام كيزى مدير المخابرات الامريكية على ضرورة تدريب هؤلاء على القتل والنسف والتدريب بالتعاون مع ضباط المخابرات الباكستانية العسكرية .. وبدأت عمليات التدريب فى ولايتى فرجينيا وكنتاكى » .

وفى اغسطس ١٩٨٣ زار كيزى القاهرة -أى فى عصر الرئيس مبارك- وأجرى مع المصريين

مشاورات لزيادة صفقات الأسلحة واشتراك خبراء مصريين فى تدريب المجاهدين .. بل وطلبت الادارة الامريكية من مصر أن تغض الطرف عن مئات المتطوعين المصريين الذى كانوا فى طريقهم الى بيشاور .

إن هؤلاء هم أنفسهم الذين عادوا بالقنابل وخطط الاغتيالات الى القاهرة فى بداية التسعينات.

سمحت لهم الحكومة المصرية بالسفر .. ودربتهم المخابرات الأمريكية .. ثم عادوا إلينا .

ويقول نفس المصدر : لقد نجح الامريكان فى أن يحولوا الدعم المالى للمجاهدين العرب فى بيشاور الى نوع من المؤسسة القائمة بذاته ، لها منظورها وميزانيتها ومكاتبها واتصالاتها وشكبة عملائها السريين الذين تجولوا فى المنطقة بحقائب رجال الاعمال وأقنعة أخرى – لتنشيط عمليات التطوع فى صفوف الحركات الاسلامية العربية – وأصدرت المخابرات الامريكية كتيبان فى فن القتال أهمها «العمليات النفسية فى حرب العصابات» الذى ترجم لعدة لغات ووزع عبر نطاق واسع فى بيشاور .. ثم كتاب «فنون الاغتيال والعنف» .

وبالتالى لم يكن غريبا أن يكون هؤلاء الارهابيين المصريين على اتصال بالمخابرات الامريكية.. ولم يكن غريبا أن يكون البلد الوحيد الذى فتح ذراعيه للشيخ عمر عبد الرحمن هو الولايات المتحدة ، حيث تحول الشيخ الضرير الى «خومينى مصر» الذى يقود ثورة عبر شرائط الكاسيت .

ولم يكن غريبا كذلك بعد أن انفجر هذا التحالف مع عمر عبد الرحمن فى الولايات المتحدة وخلال حادث مركز التجارة العالمى ، أن تضحى واشنطن بعملائها بسبب الضغوط الداخلية .. وأن تبيعهم للحكومات عند أقرب نقطة خيانة ..

هكذا اذن لم يفاجئ كثيرون بالخبر الذى نشر فى وقت واحد فى صحيفتى نيويورك تايمز الامريكية والاندبندنت البريطانية ويقول : «جرت اتصالات بين عناصر قيادية فى الجماعات الاسلامية المصرية وموظفين فى السفارة الامريكية ، وقد بدأت هذه الاتصالات فى عام ١٩٩١ وتوقفت فى فبراير عام ١٩٩٢» .

وعندما أذيع الخبر احيط بهالة من التضليل .. نفته السفارة الامريكية فى القاهرة .. لكن الجماعة الاسلامية اعترفت به ، عندما وجدت أن هناك من باعها .. وعاد مسئول أمريكى سابق يؤكدها . إذ قال روبرت جيتس مدير المخابرات الامريكية فى عهد الرئيس الامريكى جورج بوش : انا شخصيا كنت أشجع العناصر التابعة لجهاز المخابرات على الاتصال بالجماعات المعارضة فى مصر وغيرها .. وإذا حصلت من هذه الجماعات على معلومات أمنية أو غير أمنية فإننا نرسلها الى أجهزة تلك الدولة ، إذا كان البلد صديقا .

والمعنى أن الامر يكان كانوا جواسيس لمصر على الجماعات المتطرفة ..

وهو أمر صعب تصديقه بالكامل .. خاصة وأن الجماعة الاسلامية اعترفت فيما بعد بخصوص الاتصالات .. وخاصة أن المراقبين لاحظوا أن أى سائح أمريكى لم يطلق عليه الرصاص ضمن الحوادث المضادة للسائحين فى مصر ، وهو ما يشير بوضوح الى أنه كانت هناك صفقة قد أبرمت بين الجانبين .

ولكن ما الذى حدث فى هذه الاجتماعات !

أولا هى ثلاثة «فقط» كما أعلن منتصر الزيات الذى يعتبر متحدثا سياسيا باسم جماعات

التطرف فى مصر .. وقد قال لعادل الجوجرى - اشرنا لمصدر من قبل : لقد بادر مسئول بالسفارة الامريكية بالاتصال بنا ، وحضر الينا موظفان يجيدان العربية .. أحدهما كان يحمل ملفا به اسئلة الحوار .. سألونا عن المنهج والطموح والاسلوب والعلاقة مع الغرب والاقباط والموقف من الديموقراطية وتداول السلطة والتعددية الحزبية .. وما رأينا فى تولى أحد الاقباط لرئاسة الجمهورية ، وموقفنا من فرج فودة وحقوق الانسان والضباط الذين قتلوا فى الصعيد .

وقال الزيات للأمريكان وكأنه يطمئنهم أنه لا توجد عداوة بين الحركة الاسلامية والولايات المتحدة .. يمكننا التعايش فى عالم واحد على أساس قاعدة التكافوء .. أى أنه من الضرورى ألا تتدخل أمريكا فى شئون العالم الثالث .. ولو تدخلت من المفروض أن تطلب من الحكومة عدم انتهاك حقوق الانسان وعدم تزوير الانتخابات وتعذيب المعتقلين .

وكان الحوار بيمضى بين أخذ ورد .. ففى مرة هو يحذرهم من تأييد أنظمة الحكم ضدهم «لقد أيدتم شاه ايران ثم سقط ، ومن بعده جعفر نميرى .. وها هى الجزائر أيضا» .. لكنه عاد لحالة الطمأنة مرة أخرى : «اننا نوافق على أى شكل للحكم ، بشرط أن يعلن التزامه بتطبيق الشريعة الاسلامية .. نحن نوافق على النظام الرئاسى وعلى البرلمان وعلى الانتخاب بالاقترا ع المباشر وغير المباشر .. انها مسائل تفصيلية ونحن لا نسعى لإيجاد حكومة دينية وإنما حكومة تطبق الاسلام شرعا وأسلوبا» .

هكذا مضى الحوار وكأن الذين يجلسون معا ليسوا فرقاء .. فسئل منتصر الزيات عن وضع الأقباط ، وقال : إن حقوق أهل الذمة تفوق حقوق أى أقلية فى أى دولة غير اسلامية ، بما فى ذلك الاقليات فى أمريكا ، وباستثناء أن يعين أو ينتخب قبطى لرئاسة الجمهورية فإن لهم كل الحقوق وعليهم كل الواجبات .

وكان معنى الرسالة الموجهة من التطرف فى مصر الى الولايات المتحدة «ان اطمئنوا» وقد دعم هذا بعدم التعرض لأى من الرعايا الامريكيين فى مصر . فلم يسقط أى سائح أمريكى صريع هجوم ارهابى .. لكن الاعلان عن هذه الاتصالات أوهم الامريكان بأن من الممكن أن ينقص المتطرفون الاتفاق الضمنى حول هذا .. خاصة وأنهم أرسلوا الى وكالات الانباء فيما تلى ذلك بتحذيرات الهجوم على الاجانب فى أى مكان وعلى المستثمرين فى كل جانب .

وكنوع من التصرف الاحتياطى عقدت السفارة الامريكية فى القاهرة اجتماعين لاعضاء الجالية توخيا للحذر «فالأوضا ع قد تتغير» .. قال مسئول أمن السفارة روبرت أوبرين للأمريكان فى مصر «إن هذا المكان آمن للعيش فيه ولكن ذلك الوضع قد يتغير» .. ولهذا فإننى «اطالبكم بأن تلاحظوا أى تغيرا فى المناطق التى تعيشون فيها ، ونبهوا على البوابين ألا يدخلوا أى غرباء ، وتعمدوا تغيير روتين حياتكم اليوم حتى لا تكونوا هدفا» . «روزاليوسف - ١٩٩٤/٢/٢١» .

ـ ولم يحدث شىء !

فالمتطرفن لازالوا يريدون بقاء القنوات مع الولايات المتحدة مفتوحة .. وإن كان الامريكان كشفوا الاتصالات فإن على الجميع أن يعرف أن الذى يدور بها ليس أمرا هاما .. أو هكذا أراد أن يقول مصطفى مشهور عندما نشر نص حوار جرى بينه وبين أحد مسئولى السفارة الأمريكية فى منتصف ديسمبر ١٩٩٣ ..

وكان من بين أجزاء الرسالة أيضا أن الأمريكان هم الذين يطلبون تلك اللقاءات «بناء على

طلب من السفارة الأمريكية بالقاهرة ، وشمل اللقاء عددا من الاسئلة الخاصة بقضايا السلام والعنف وموقف الاخوان منها» .

وفى الحوار المنشور أسئلة خاصة بآراء الاخوان فى مباحثات السلام واتفاق غزة - أريحا لكن المقال سرعان ما يطرح بالبنط العريض سؤال بعينه .. يقول فيه السكرتير الثانى : «الحكومة الامريكية تسعى الى الحوار مع كل القوى السياسية» فيرد مشهور : «ونحن نرحب بذلك» . لكن السكرتير يعود ليقول : «ولكن هناك جماعات تقدم العنف فلا نحاورها» .. فيردمشهر : نحن جماعة عقيدية ، وهذا لا يعنى انه تبرأ لا دخل لنا بالسياسة .. إنما الاسلام دين عقيدة وسياسة .. ونحن لا نسعى كما يقول البعض الى اقامة حكومة دينية ذات تفويض الهى ، وإنما حكومة تطبق الحلال وتحرم الحرام . ثم تبرأ مشهور من العنف -والجماعات الارهابية- فقال : لقد جلسنا معهم قبل ١٩٨١ ونصحناهم بخطأ أسلوب العنف ولكنهم لم يقتنعوا فقطعنا صلتنا بهم ، وعندما التقى بعض اخواننا بهم فى السجون اختلفوا معهم .

انها نصوص مضامين التقارير التى ترفع للمخابرات الامريكية من القاهرة..

تقارير عن التطرف والمتطرفين .

وأما المصادر التى تقدم المعلومات فهى مصادر مصرية .

وأما تلك الاسطر السابقة فكانت مجرد مقتطفات من «العملية المكشوفة للتجسس الأمريكى على عصر مبارك» .

الفصل الرابع

«عملية المجنون»!
جاسوس الاسكندرية
يطلب تصفية حسابه!

كان عصبيا ، متوترا ، يتحدث وكأنه يدافع عن حياته ، يعترف بذنوبه بطريقة توحى انه يقف فوق منبر الحق ، يحكى وكأنه كان يناضل من أجل وطنه .. وقد كان كل هذا مفتعلا ، تمثيل فى تمثيل ، وقد كان من الممكن أن أتحمله وأعطيه بقية سمعى ليقول نهاية القصة ، لولا أنه انفعل وصرخ واقفا : انا جاسوس .. ولى ٢ مليون دولار فى ذمة الولايات المتحدة الأمريكية !

هنا تحول اندهاش جرسونات كافيتريا فندق سان جيوفانى فى الاسكندرية الى فضول ، اقترب بعضهم منا ، وحاولت «ساقية» أن تبدو وكأنه ترفع كوب العصير من امامه لتفهم ما يحدث.. وترك شاب صديقته على مائدة بعيدة كان ينفرد بها عليها ليسألنى : فيه حاجة يا أستاذ.

لم يكن لدى أى كلام أقوله ، كيف ابرر هذيان شخص بأنه جاسوس ، إن مجرد الحديث فى هذا الأمر له ثمن ، الى أن يثبت أن المتحدث مجنون .. لا يسيطر على عقله ، ولا يحكم كلامه ، فأى جاسوس هذا الذى يمكن أن يكشف نفسه فى الشارع .

عندئذ ، أغلقت جهاز الكاسيت ، وسحبت الشريط ، ثم وضعته فى جيبى .. وطلبت من «الساقية» كوب عصير برتقال .. رغم أننا فى نهار رمضان ، لكننى كنت احاول أن ابتعد عن الحديث مع أى شخص آخر حتى أسيطر على قضية أمن الدولة التى تصرخ أمامى ، ويمكن أن تصيبنى ببعض شظاياها دون أن أدرى .

قلت له متصنعا الهدوء : هل يمكن أن تخفض صوتك قليلا ، ونتحدث بطريقة مناسبة ؟ لكنه عاد يصرخ : مش قادر .. حقى .. أنا تعتب كتير .. ولم أحصل على سنت واحد مقابل الخدمات التى أديتها لأمريكا . ما الذى فعلوه من أجلى .. أنا أنقذتهم من جريمة ارهابية كبرى .. قدمت لهم تاجر «فلسطينى – مصرى» على طبق من فضة ، ثم أداروا لى ظهورهم .

كان من الضرورى أن نترك المكان ، قبل أن تصبح الفضيحة بجلاجل .. دفعت الحساب ، وسحبته من يده ، وأوقفت تاكسيا لعله يهدأ فى مكان آخر . وفى السيارة كان السائق يهدئ من سرعته كى يسمع أكبر قدر من القصة المثيرة ، التى لم يتوقف ممدوح عن أن يروى فصولا جديدة فيها .. وعندئذ سألت نفسى عن الطريقة المؤلمة التى قد ينتهى بها مثل هذا الموقف فى الاسكندرية.. كنت أخشى أن تأخذ الشهامة السائق فى طريق المروءة والوطنية ثم يقود السيارةالى أقرب قسم شرطة ، فنبقى هناك الى أن يبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود .. الصحفى من الجاسوس .

إن الورطة بدأت فى ردهة الدور الخامس فى مؤسسة روزاليوسف .. كنا فى الرابعة من عصر يوم ثلاثاء ، عندما دعانى الاستاذ عادل حمودة المسئول عن تحرير المجلة وأعطانى خطابا فخما أرسله ممدوح اليه .. كان الخطاب معبأ بعشرات القصاصات والاعترافات «كنت عميلا للمباحث الفيدالية الامريكية .. ولم آخذ حقى» .. وبحاسة صحفى خبير يدرك أن القصة قد تصلح لموضوع هام قال عادل حمودة : دعنا نعرف قصة هذا الرجل . فقرأت القصاصات واتصلت بممدوح فى التليفون وسمعت صوته العصبى ، وكان توقعى على أقصى تقدير ، أن هناك شخصا موهوما يريد أن يحكى رواية بلا أساس .

وفى الاسكنديرة ، فى ظهيرة اليوم التالى ، كان اللقاء .

نحيف ، متوسط الطول ، نصف رأسه أصلع لكن شعره طويل ، أغلبه أشيب ، رغم أنه تجاوز الاربعين بقليل يضع نظارة على عينه ، عندما خلعها اتضح أن عينه تعانى من اصابة سابقة .

فيما بعد قال أنها بسبب حادث سيارة فظيع .. تسبب فى اصابة أخرى داخل جسمه ، ثم فتح قميصه وكشف عن اصابة فى صدره .. ومضى يشرح قصته وهو يشير بيديه التى لمعت فيها عدة خواتم ذهبية .

لقد كان حريصا فى الولايات المتحدة على أن يضع فى اصابعه نفس الخواتم.. يتفائل بها .. لا يخلعها أبدا، وكانها جواز سفره الذى يحمل رقم ٤٣٠٠٧١ ـ الاسكندرية.. انه الجواز الخامس الذى يصدر له من مصر أو من أى من قنصلياتها فى الخارج . فهو قبل العملية الكبرى ـ كان كثير السفر والتجوال ، يبحث عن لقمة العيش فى أى مكان وبأى شكل ، خاصة وأنه كان يعمل مصدرا . وهكذا فإنه سافر الى ألمانيا وسويسرا وهولندا ، واسرائيل .. وعندما احتاج الأمر أن يسافر الى السعودية ، استخرج جواز سفر بدل تالف حتى لا يرى السعوديون تأشيرة اسرائيل فيمنعونه من دخول جدة .. وقد نجح .

ولكن كل أرباحه من كل هذه الرحلات ضاعت فى الهواء .. طارت بسبب رحلة الولايات المتحدة الطويلة . وقد كان قرار السفر الى أمريكا بهدف البحث عن مزيد من الارباح والاستقرار.. لاسيما وأن أغلب أفراد اسرته يعيشون هناك .. ولهذا اتجه الى حيث يقيمون فى نيوجرسى .. وهناك قرر أن يبيع ويشترى من اليوم الأول .. ولكن أى بيع ، وأى شراء ؟

إن ممدوح سافر الى أمريكا بنفس مبادئه ، وأساس هذه المبادئ أن «أى انسان يمكن أن يباع ويشترى .. وأن كل الناس ينتظرون اللحظة المناسبة لاتخاذ قرار بيع أنفسهم . بعض الناس يمكن أن يرفض مليون دولار ، ولكنه سيوافق بالتأكيد لو حصل على دولار واحد فوق المليون» . ورغم أن ممدوح كان يقترب بالفعل من حاجز النصف مليون إلا أنه وافق فجأة عندما طلب أول جهاز أمنى أمريكى منه أن يتعاون معه .. وبدا وكأنه من اليوم الأول له فى نيوجرسى : جاسوس يعرض نفسه للبيع .

عندما وصل الى تلك الولاية الأمريكية القريبة من الولاية الأشهر نيويورك كانت الفرصة متاحة أمامه للعمل .. لدى أخيه شقة ملائمة .. وأفكارا جيدة .. وكلاهما يملك بعض المال ، الذى أصبح ذا قيمة عندما انضم اليهما تاجر فلبينى .. فأسس الثلاثة شركة تصدير واستيراد رأسمالها نصف مليون دولار .

بجانب الثلاثة كان هناك شريك أمريكى رابع ، يضفى على الشركة طابعا رسميا.. كان شريكا وهميا .. وفى الواقع كان الشركاء جميعا وهميون ، باستثناء ممدوح .. كل شىء كان فى يده .. من الفكرة حتى توقيع الشيك ، واستلام الفلوس . ولهذا فإن أيا منهم لم يعارضه عندما اقترح أن يركز نشاط الشركة فى استيراد السيارات الفارهة من أوربا الى أمريكا .

قال أخيه نشأت ، الذى بدا قليل الخبرة رغم أنه سبق ممدوح الى الولايات المتحدة ، هل نتاجر فى السيارات فى دولة تنتج اكبر عدد من العربات الفارهة فى العالم . ورد ممدوح وكأنه خبير فى سيكولوجية الأمريكيين : يا عزيزى انهم يحبون السيارات الألمانية والايطالية .. دعنا نداعب رغبة الأغنياء فى الرفاهية .

وكان مثيرا أن ينفق ممدوح ٨٠ الف دولار ثمنا لسيارة مرسيدس ٥٦٠ حديثة ، وقال محاولا اقناع شركائه : غدا تعرفون قيمة أن نركب مثل هذه السيارة أمام العملاء . وبالفعل ، وفى اليوم التالى مباشرة ، شاهد نشأت أخيه ممدوح يقف أمام مقر الشركة وهو يحاول اقناع أحد

الأمريكيين بشراء السيارة .. وتم البيع ، وحقق ممدوح خمسة آلاف دولار فى خلال ٢٤ ساعة فقط . لكنه عاد واشترى لنفسه سيارة من نفس النوع .. وفى هذه المرة لم يعترض الشركاء بأى كلمة .

وفى خلال اسابيع قليلة كان ممدوح قد قام بعدة رحلات الى المانيا وايطاليا ، ليعقد عدة صفقات لبيع سيارات من أنواع مرسيدس ، وفيرارى ، وبى . إم . دبليو ، وبورش ، ولامبورديني.. وكانت الارباح تتزايد ، لكنه بعقلية التاجر كان يسعى للحد الأدنى من النفقات . ولهذا فإنه قرر أن يوسع دائرة عمله عن طريق البنوك .. وحصل على ائتمانات من البنوك قدرت عام ١٩٨٥ بنحو خمسة ملايين دولار . وفى جانب آخر حاول أن يصل الى صيغ مناسبة مع الجمارك الأمريكية حتى لا يدفع كثيرا ، ويستفيد هو من فارق أسعار الجمارك .. وفى نفس الوقت كان يبحث عن أى شركة سياحية يمكن أن تنظم له رحلاته الى أوربا بأقل التكاليف .. كان مستعدا للسفر الى المانيا داخل مركب بمجداف لو أن هذا سيوفر له دولار واحد ..

وبسبب محاولات التوفير تلك وصل ممدوح الى أجهزة الأمن الأمريكية .

لم يكن من الممكن أن يتعاون مع «الجمارك» بدون ثمن .. كان عليه أن يدفع ليحصل على أى شىء .. ولم يكن ما سيدفعه نقودا .. ولكن معلومات .. ولم يكن المقابل أيضا نقودا ، ولكن تسهيلات لصالح الشركة التى يديرها .. هكذا وجد طريقه الى أحد مكاتب «جهاز حماية الجمارك الأمريكية» . إنه جهاز مخابرات من نوع خاص .. له ضباطه وعملائه ومرشديه ، ومندوبيه فى بعض الدول .. لكنه لا يتمتع بشهرة عالمية كبيرة . وقد كان ممدوح أحد الذين عقدوا الصفقات السرية مع هذا الجهاز .

قالوا له : انت رجل تسافر كثيرا ، وتسمع كثيرا ، وتقابل الكثيرين ، وترى أشياء عديدة .. وكل ما عليك أن تفعله هو أن تبلغنا دائما بالأشياء المريبة ، ونحن فى المقابل سنساعدك فى مرور سياراتك الفارهة بأبسط مما يمكن أن تتخيل .

لم يناقش ممدوح الضابط الذى يتعامل معه فى أى شىء . أجاب على عرضه فى الاسبوع التالى مباشرة ، وكانت الاجابة فى شكل معلومات عن عملية تهريب مخدرات .. فشلت بسبب ممدوح . الذى سرعان ما حاز ثقة جهاز حماية الجمارك الامريكية .. خاصة وأن قضية المخدرات تبعتها قضية تهريب أجهزة من نوع خاص الى خارج الولايات المتحدة .. ثم قضية مخدرات أخرى ، ومن بعدها قضية سيارات بمستندات مزورة .. وأخيرا كانت قضية سلطان الجاولى .. تلك القضية التى نقلت نشاط ممدوح من العمل مع جهاز حماية الجمارك الى المباحث الفيدرالية جهاز الأمن الداخلى فى الولايات المتحدة .

و«سلطان» قصة مصرية معقدة الى حد كبير .. إنه فى الواقع فلسطينى كان يعيش فى مصر. عرف طريقه الى الاخوان المسلمين ، فأطلق لحيته ، وعكف على العمل السرى معهم ، ونسى النضال لصالح قضية وطنه ، وتفرغ للعمل ضد عبد الناصر .. كان يؤمن -مثلهم- أن هذا الرجل هو الذى يعوق حل جميع مشاكل الدول العربية .. ولهذا لم يكن غريبا أن يدرج اسمه ضمن قوائم التنظيم عندما وجهت الدولة فى مصر ضربة كبيرة للاخوان المسلمين عام ١٩٦٥ .

هرب سلطان داخل مصر عامين .. كان واحد من مئات من الاخوان يتناثرون فى مخابئ عديدة فى مختلف المحافظات . بعضهم كان ينتظر الهروب برا عن طريق السودان ومنها الى

السعودية .. أو عن طريق ليبيا ومنها الى أوربا . وبعضهم كان يحاول اقتناص أية فرصة للهروب عن طريق البحر الى أبعد نقطة ممكنة فى العالم .. الى أمريكا .

وكان سلطان من الفريق الأخير .

فى ذلك الوقت ، بالتحديد فى عام ١٩٦٧ كان سلطان الجاوى يقضى أيامه بين عدة مخابئ فى مدينة بورسعيد ، حيث يعيش أغلب أفراد أسرته .. ينظر خلفه عدة مرات فى الدقيقة ليتأكد أنه غير مراقب ، وأن أحدا لن يفاجئه بإلقاء القبض عليه . كان قليلا ما ينظر امامه .. وفى المرات النادرة التى فعل فيها ذلك وجد مكانا خاصا على سفينة بضائع سوف تبحر من بور سعيد الى أثينا ، ومن هناك الى الولايات المتحدة .. وقد كانت العملية محفوفة بالمخاطر ، لكنه أخذ قرار المغامرة ، خاصة وأن الموانئ المصرية فى ذلك الوقت كانت قليلة الحركة مهددة بالاغلاق .. ولو تردد سلطان لحظة ، ربما لن تتكرر الفرصة أمامه مرة أخرى للأبد .

قضى سلطان عدة أيام على سطح سفينة البضائع قبل أن يصل الى ميناء «جنوه» فى ايطاليا، ويودع بعض أصدقائه الهاربين الذين عرضوا عليه أن يهبط معهم ، لكنه رفض .. وقضى عدة أيام أخرى قبل أن يصل الى بروكلين بدون أية أوراق ، وقد القى بنفسه من فوق السفينة ، وطلب اللجوء السياسى من أول رجل أمن شاهده فى الميناء .

لم يكن سلطان فى حاجة لأن يقدم مبررات قوية تسمح له بالحصول على اللجوء .. فقبله كان قد وصل عشرات آخرين من الاخوان حصلوا على اللجوء السياسى من أمريكا ، وكان يكفى اتصالا تليفونيا واحدا مع أحدهم لكى يؤكد رواية سلطان ويمضى السيناريو فى نفس الطريق الذى رسمه لنفسه فى بورسيعد .

فى نهاية الستينات كان سلطان إذن صعلوك اخوانى ، لا يملك من الدنيا سوى الحماية السياسية .. لكنه فى منتصف الثمانينات وعندما قابل «مدوح» كان شخصا آخر ... اخوانى لم يزل ، ولكنه ليس فقيرا .. بل مليونيرا خلفه حاشية كبيرة ، أغلبها من المتطرفين العرب والمصريين ، تعمل فى وكالاته ومخازنه ، وتتمتع بسطوة علاقاته الممتدة من أمريكا الى مصر ، ومن منظمة التحرير الى السعودية وقطر .

ولأنه يعرف كيف يمكن أن يدير أمور هؤلاء الذين يلتفون حوله ، وكيف يمكن أن يكسب من مشاعرهم الدينية المخلوطة بأحلام سياسية كبيرة ، فإن سلطان كان يعيش فى نيوجرسى وكأنه داخل دولة اسلامية .. يرتدى الجلباب الابيض ، ويطلق لحيته ، ويصلى فى مسجد خاص بناه فى بيت يملكه ، ويتكلم فى أمور الجهاد فى أفغانستان ، ويضع اسماء مصرية على انشطته ، ويوافق على أن يأوى سيد نصير -قاتل كاهانا ، ومحمد سلامة المتهم فى تفجير المركز التجارى فى نيويورك ، ومن بعدهم عمر عبد الرحمن .

إن هؤلاء جزء هام نشاطه التجارى .. استضافتهم تعنى أموالا ، ومساعداتهم فى النهاية تؤدى الى الربح .

كانت تلك هى حالته عام ١٩٨٥ ، وفيما بعد قال «ممدوح» لى ، وهو يروى قصة حياة سلطان: إن أصوله تنتمى لغزة وقد بدأ حياته فى تهريب الذهب ، وتطورت أوضاعه الى أن أصبح حلقة اتصال بين المتطرفين وعدد من الدول العربية ، مستخدما فى ذلك غطاء فى شكل وكالة سياحية تنظيم رحلات الى جميع انحاء العالم .

وعن طريق هذه الوكالة عرف «ممدوح» «سلطان» .

كان ممدوح يبحث عن أى شخص يمكن أن يوفر له فى أثمان التذاكر والرحلات .. وقد قابل سلطان لهذا الغرض .. واتفقا على أن يدبر له رحلات رخيصة على خطوط جوية غير شهيرة مثل «البلغارية» و «الباكستانية» والبولندية .. ولكن الصفقات لم تقف عن هذا الحد . فكلاهما مصرى ، يحاول أن يمارس «فهلوته» على الآخرين رمبا تضرب معه فى برج الحظ ويكسب مالا من الهواء.. ولهذا امتد الحديث من جانب «ممدوح» الى كلام عن صفات تصدير واستيراد .. ووصل الأمر من جانب سلطان الى درجة انه قال «للسكندرى» المهاجر :« لقد أعجبتنى شخصيتك ، ونحن بحاجة لبعض الاسلحة لاخواننا الفلسطينيين فى الضفة الغربية .. وأنا أرى أن علاقاتك فى أمريكا يمكن أن تساعدك على هذا» .

كانت القصة صراعا بين «الفهلوة» لدى الطرفين .. لكن «ممدوح» توقف عن الكلام الطائر فى الهواء .. وقال لنفسه ان مجرد التهريج فى قصة الاسلحة فى الولايات المتحدة له ثمن .. ثم أن سلطان اتهم من قبل فى عمليات تهريب مخدرات .. وهذا يعنى أنه معروف للأجهزة الأمريكية ، لاسيما وأنه عمل أيضا فى تزوير بعض الأوراق .

ولم يكذب ممدوح خبرا .

وقبل أن تبرد سخونة كلمات عرض سلطان كان قد أبلغه لجهاز حماية الجمارك الأمريكية .

بعد أيام اتصلت به المباحث الفيدرالية ، وذهب اليها ، وأدلى بكافة التفاصيل .. وانتظروا بعض الوقت حتى جاء الضوء الاخضر من واشنطن لمتابعة القضية باستخدام ممدوح وهنا أيضا بدأت صفقة جديدة بين الجاسوس السكندرى وأجهزة الأمن الأمريكية .. قيل له سوف تحصل على الجنسية بدلا من الاقامة المؤقتة .. وسوف نرتب لك كل تسهيلات حياتك فى الولايات المتحدة كأى مواطن أمريكى بشرط اتمام هذه القضية .

وارتفع الثمن من مجرد تسهيلات جمركية الى جنسية دولة عظمى .

وبدأ ممدوح فى حفر الفخ لسلطان الجاولى .

لم يكن يتحدث اليه إلا من خلال تليفون مراقب ، يسجل المكالمة بالتفصيل بداية من «تحية الصباح أو المساء» وحتى «الى اللقاء» .. وقد كرر هذا ١١ مرة ، سواء كان ذلك تليفونيا ، أو فى لقاءات مباشرة .. وفى النهاية فرغت شرائط التسجيل فى ١١ ملف ، كل منها يتضمن نص لقاء بين عميل المباحث الامريكية والارهابى المصرى سلطان الجاولى .

يقول نص تفريغ شريط تم تسجيله فى يوم ١٤ نوفمبر ١٩٨٥ ، بين سلطان وممدوح .

«ليس هناك أحد يجيب فى «وكالة سلطان للسياحة» .. ورقمها ٢٠١٧٩٨٧٢٠٢ ، وهناك جهاز رد آل يطلب من المتحدث أن يطلب مرة أخرى فى «محل بقالة بورسيعد» فى تليفون رقم ٢٠١٦٥٦٥٨١٢ ..

ثم .. تم الاتصال بالفعل .. ويقول نص المحادثة :

– سلطان : وكالة سلطان .

– ممدوح : هالو .. مساء الخير .

– سلطان : مرحبا .. مساء الخير .

– ممدوح : كيف أنت يا حاج ؟

– سلطان : مرحبا .
– ممدوح : انا ممدوح .. اسف لأنني لم اتصل بك بالأمس ، كما اتفقنا .
– سلطان : لا تشتغل بالك .
– ممدوح : لقد قابلت الرجل حالا
– سلطان : كويس
– ممدوح : هو يقول أن معه بعض الأسعار .. لكن هل لديك أى عرض من شخص آخر ؟
– سلطان : «متجاهلا سؤاله» .. انا فى البقالة . افعل كل شىء بنفسى .
– ممدوح : يعنى ممكن أخذ راحتى فى الكلام ؟
– سلطان : إيه ؟ .. لأ .. ربما دلوقت مش مناسب .
– ممدوح : «وهو يكرر اجابة سلطان» : ليس مناسبا أن نتكلم الآن ؟
– سلطان : أنا متعب .. لا أستطيع أن اتكلم معك فى التليفون .
– ممدوح : إذن هل اتحدث معك فى البيت .. أم أنك تريد إنهاء المكالمة ؟
– سلطان : لا .. قابلنى غدا فى المكتب .
– ممدوح : «عاد يكرر مرة أخرى» : فى المكتب ؟ .. امتى ؟
– سلطان : بعد الساعة الثانية .
– ممدوح : ٢ بعد الظهر ؟
– سلذان : أيوه
– ممدوح : ماشى يا حاج .. لكن انت عارف ان غدا الجمعة .. وكمان انا أريد الذهاب للبنك قبل الثانية .
– سلطان : خلاص .. خليها قبل واحدة الظهر .
– ممدوح : قبل واحدة .
– سلطان ك أيوه .
– ممدوح : امتى بالضبط ؟
– سلطان : قبل واحدة !
– ممدوح : خليها الساعة ١٢ ، لأنك تعرف ان موعد الغداء المخصص لى فى وقت العمل من ١٢ الى الساعة الواحدة .
– سلطان : ممكن .. لكن انا مش عاوز أى حد معاك .. يعنى انت لوحدك .
– ممدوح : بلاش الحاج حسن يكون موجود .
– سلطان : الحاج حسن مسافر .
– ممدوح : أوكى .. باى باى !
«انتهت المكالمة» .

لقد تضمنت المحاضر التى أعطاها لى ممدوح بكل ثقة ، دليلا على ما يعتبره علما جيدا ، أمورا تافهة عديدة .. لكنها فى نفس الوقت تضم أمورا أكثر أهمية عن صفقة الاسلحة والمتفجرات .. وكمثال فإن ممدوح ذهب فى اليوم التالى الى سلطان فى مكتبه .. كان يبدو عاديا ، هادئة ، لكنه كان فى الواقع يضع فى منتصف ظهره جهاز التقاط حساس للغاية ، ينقل نص

اللقاء الى سيارة تابعة للمباحث الفيدرالية على بعد خمسة كيلوا مترات من مكان الوكالة .. وكان الجهاز من الدقة بحيث أن الذين سمعوه فيما بعد سمعوا أيضا أنفاس ممدوح وضربات قلبه .

يقول محضر تفريغ شريط التجسس على اللقاء :

- ممدوح : صباح الخير يا حاج .. ازيك .
- سلطان : بخير .. وانت عامل ايه .
- ممدوح : هل جاء «عفت» - «يقصد الفلسطينى الذى يعمل مع منظمة التحرير الفلسطينية فى السعودية» .
- سلطان : لسه .
- ممدوح : «شعر أن الكلمة لم تسجل جيدا .. فعاد يسأل» : بتقول ايه ؟
- سلطان : لا .. ولا حاجة .. كل شىء تمام .
- ممدوح : الله معاك .
- سلطان : ازيك .
- ممدوح : بخيرنحمد ربنا .
- سلطان : هل رأيت الرجل الذى كنت تجلس معه .. «يقصد تاجر السلاح» .
- ممدوح : آه .. أمس ..
- سلطان : هذا الرجل الذى كان معنا من قبل .. هل رأيته ؟
- ممدوح : نعم .. انه رجل جيد .. اسمه ايه .. الحاج .. ايه .. سيد ولا حسن .
- سلطان : ده ممثل منظمة التحرير .
- ممدوح : ممثل ايه ؟
- سلطان : منظمة التحرير فى السعودية .
- ممدوح : هوه فلسطينى ؟
- سلطان : أيوه .
- ممدوح : آه .. ده راجل كويس .
- سلطان : آه .. فوق مستوى الشبهات .
- ممدوح : طيب ، الحاج حسن طلب شحنات من مادة تى . إن . تى ، وأجهزة توقيت ، ومفرقعات .. وأنا جاى دلوقت من مقابلة التاجر .. عنده كميات كبيرة .. واسعاره رخيصة جدا .. وأنا أحضرت أفضل الأسعار الممكنة .
- سلطان : ليست لدى أية فكرة عن الأسعار .
- ممدوح : اسعار لا يمكن تصديقها .
- سلطان : سأكون كاذبا لو قلت لك اننى أفهم فى الأسعار .
- ممدوح : أبلغ الحاج حسن بها وهو سيقول لك أد ايه هى مناسبة .
- سلطان : نعم .. بس عليك ان تعرف ان معه ١٥٠ ألف جنيه .
- ممدوح : ألا يمكن اختصار كلمة تى . إن . تى .. انها طويلة وسخيفة .
- سلطان ك يمكن تسميتها س . فور .. وانا أفضل كلمة متفجرات . !
- ممدوح : اذن هناك متفجرات ، وطلقات ، مائة غطاء كهربائى .. وأجهزة لها القدرة على

الاستقبال والارسال ، وهي قادرة على أن تستقبل لمسافة طولها ٥٦٠ مترا .. وهي بتشتغل عشر مرات بمجرد بداية العمل .

– سلطان : اوكى .

– ممدوح : هو بيتكلم عن ألف قطعة ، ومائة متفجرات ، وتايمرز وريموت كنترول .

– سلطان : لن أدفع ولا مليم إلا إذا استلمت كل البضاعة هنا . وفى نفس الوقت لن يسلمنا البضاعة فى المحل هنا . هل تحب ان تتم عملية التسليم فى نيويورك .

– ممدوح : أهم شيء فى موضوع التسليم .. الفلوس .

– سطان : بهذا الشكل على أن اتسلمها فى اسرائيل أو الضفة الغربية .

– ممدوح : الاقامة والتذاكر عليكم .

– سلطان : كل ده على الحساب .

■ ■

كان ممدوح ينفذ عمل المخابرات بكشل دقيق ، وحسب روايته فإنه كان يذهب قبل كل لقاء مع سلطان الى مقر المباحث الفيدرالية ليضع فى جسمه أجهزة التصنت .. ويذكرهم بالوعد الذى حصل عليه من ضابط اسمه نيلك ماجيو حول منحه الجنسية .. وقد كانوا يسيرون معه فى القضية حتى النهاية .. كانوا يؤلفون له القصص التى يمكن أن يقولها للجاولى . ومن بين هذه القصص انه يعرف ضابطا فى قاعدة تابعة لحلف الاطلنطى فى المانيا وأن هذا الضابط يستطيع ان يوفر أسلحة تحت بند «الهالك» ليبيعها لسلطان .

وقال ممدوح للاخوانى القديم مستغلا رغبة سلطان فى أية اسلحة : لقد فعل ذلك أكثر من مرة ، وحقق ثروة كبيرة من وراء هذا .. وهو مستعد لأن يقوم بالمغامرة مرات جديدة ، فهو يستغل مناورات حلف الاطلنطى فى اخفاء الاسلحة الضائعة ، لاسميا وأن المناورات تتكرر مرتين فى العام .. فى الربيع والخريف .. وبعدهما يهرب هذه الاسلحة الى مخزن سرى خاص به فى كندا .

ومضت القصة تتطور .. ففى احدى المرات طلب سلطان الجاولى من ممدوح مسدسات بكاتم صوت مقابل ١٥٠٠ دولار لكل مسدس .. ثم طلب منه المادة المتفجرة تى . إن . تى .. وفى مرة ثالثة عرض ممدوح نفسه عليه أن يحضر له نوعا جديدا من المفرقعات ، ذات قوة تدمير تساوى عشر مرات القوة التدميرية للتى . إن . تى . وقال لسلطان محاولا اغرائه : انها جديدة حدا .. غير معروفة .. ولا تصفر أجهزة كشف المفرقعات عندما تمر منها ، لأنها من البلاستيك .. ولا تسطيع الكلاب المدربة أن تدل عليها .

كل هذا كان يدون على شرائط كاسيت ، أو فى ملفات .. وفى كل مرة كان ممدوح يعود الى ضباط المباحث الفيدرالية بمعلومة جديدة ، يتكلم عمن رآهم .. ويحكى عن مشاهداته فى وكالة سلطان .. وكمثال فإن من بين المعلومات المدونة فى ملف سلطان الجاولى نقلا عن «ممدوح» انه «يعرف شخصا فلسطينيا اسمه الكودى سعيد حسن .. ينادى أحيانا بالحاج حسن . واسمه الاصلى م . أ . أبو شقرة – هكذا فى الملف – وهو المدير السرى لأنشطة منظمة التحرير فى السعودية .. وأحينا يقال ان اسمه الحقيقى أبو شخرة» . وفى الملف أيضا : «هناك شخص مصرى هادئ ملتح ، من بورسعيد ، اسمه سيد نصير – فيما بعد ، واثر الافراج عن الجاولى اتهم نصير بقتل كاهانا» . وفى الملف أيضا : «أن سلطان لم تزل له علاقات اقتصادية مع مصر ،

وهو حريص على استثمارات بين الدولتين فى مجال الاسماك ، كما أن لديه محل بقالة يحمل اسم «بورسعيد جرو سرى» وفيه كذلك «يعمل لدى سلطان شخص مصرى اسمه مصطفى ، موظف فى مكتب ترجمة يملكه الجاولى ، ومصطفى هذا يحاول دعوة الزنوج الى الدين الاسلامى .. ويعمل لديه كذلك شخص اسمه محمد سامى ينسق بين سلطان والمجاهد فى افغانستان» .

لقد عبأ ممدوح ملف سلطان حتى أخره ، وأوصل الجاولى الى المباحث الفيدرالية بقائمة اتهامات كانت تكفى للحكم عليه بالسجن لمدة ٦٠ عاما .. لكن سلطان اعترف انه مذنب فحكم عليه بالسجن لمدة عامين فقط ، عقابا له عن تهمة تهريب المتفجرات دون تصريح .. ثم أفرج عنه تحت بند العفو القانونى .

وقد جن جنون ممدوح بسبب هذا العفو .. وقال انه «مدفوع الثمن» .. وأن هناك «أصابع خفية لعبت فى القضية .. إذ من أين يمكن أن يدفع سلطان الجاولى ٤٠٠ الف دولار فورا للافراج عنه قبل اتمام التحقيقات .. لاسيما وأنه كان يتنقل أثناء المحاكمة داخل سيارة تحمل أرقاما دبلوماسية «تابعة لسفارة عربية» ..

ولقد جن جنون ممدوح .. كان يعمل وكأنه ضابط ، وقفت أمام أحلامه اجراءات القضاه .. لم يدرك أنه مجرد جاسوس مؤقت .. اندمج فى الموقف حتى صار يتعامل مع الحدث وكأن الدولة دولته .. لم يدرك أنه هناك حسابات أخرى تحكم عمل المباحث الفيدرالية ، وأن المكاسب السياسية يمكن أن تطيح بالقانون فى أقرب مفترق طرق .. ولم يفكر للحظة فى أن سلطان نفسه قد يكون عميلا للمباحث ، لم يتخيل أن سلطان رغم القبض عليه سوف يستضيف فيما بعد عمر عبد الرحمن الذى ستصفه الصحف الامريكية بأنه خومينى مصر .

لقد كان جاسوسا ساذجا ..

ضحكوا عليه ..

ولم يدفعوا له ..

ولم يشفوا حتى غليله بسجن المتهم الذى كان يتجسس عليه .

لكن اللعبة لم تنته عند هذا الحد .. لقد تعقدت .. وكان ممدوح فى قلب العقدة .

تنص قواعد عمل الشهادة أو التجسس لحساب المباحث الفيدرالية فى الولايات المتحدة على أنه لا يمكن أن يترك الشاهد هكذا فى الهواء الطلق بعد التحقيق فى القضية .. لأنه يمكن أن يقتل بمنتهى البساطة لو وصل اليه أحد أعوان المتهم .. ووفق هذه القواعد وضع ممدوح فى إطار برنامج «منظمة حماية الشهود» . ورغم أن ذلك مصيبة لأنه يعنى نهاية تاريخ حياة شخص بالكامل .. إلا أن الجاسوس السكندرى كان يقول فيما بعد : «لقد كنت أول عربى يدخل هذه المنظمة» .

وقلب دخول هذه المنظمة حياة ممدوح بالكامل .. أصبح اسمه «مايك جون دولف» .. لم يعد مسموحا له باستخدام اسمه القديم على الاطلاق . وكان من الطبيعى أن تستخرج له بطاقة اقامة ورخصة قيادة .. وبالتالى فإن عليه أن يخفى جواز سفره المصرى .. ولمزيد من الاحتياط حلق لحيته ، وتوقف عن استخدام النظارة رغم أن هذا كان يتعبه كثيرا ، حتى وضع على عينه عدسات لاصقة .

ولم يكن التنكر وتزوير الأوراق هو الاجراء الوحيد فى هذه المنظمة .

كان من المتبع مع الشهود الذين تفرض عليهم الحراسة أن ينقلوا إلى أماكن بعيدة تماما عن مقرات اقامتهم .. وقد نقل «مايك جون وولف» – أو ممدوح– الى قاعدة عسكرية أمريكية لكى يبقى بعيدا عن العيون ..فوضع فى غرفة خاصة بأحد جنود الجيش الامريكى ، وفوق هذا فرضت عليه حراسة ، جعلت منه شخصا حبيسا الى حد كبير ، يضطر لأن يحمل مجموعة من الجداول المقسمة الى مربعات .. كل مربع يرمز الى ساعة معينة .. وفى كل ساعة يمر عليه أحد مراقبى المنظمة ليوقع فى المربع الخاص بساعة المرور ، وكان المقصود من ذلك بقاء «ممدوح» فى مكانه بدون حركة .

وفيما بعد ، عندما قابلت «ممدوح» كان حريصا على أن يستخدم اسم «مايك جون وولف» .. وكان كذلك حريصا على أن يظهر لى جدول المراقبة ، وهى معبأة بالتوقيعات كدليل على انه قام بعمله على خير وجه . بل انه أضاف فأخرج مجموعة من ايصالات فندق نقل اليه بعد الاقامة فى القاعدة .. وقال : «كنت ابقى فى غرفتى فى الفندق لعدة أيام ، حتى يأتينى أمر بالحركة من المنظمة .

وحتى الان فإن ممدوح يظن أن كل هذه الاجراءات الأمنية قد فرضت عليه لكى تحميه ، ولم يطرأ على ذهنه أن هذه الاجراءات الهدف منها أيضا منعه من الاتصال بالمتهمين حتى لا يتواطئ معهم ، ويغير موقفه .لم يدرك أيضا فى تلك الاثناء ، وحتى الان ، أنه قد أصبح كارتا محروقا ، لن يصلح للاستخدام مرة أخرى .. فقد كشف وانتهى الأمر .

ولكنه كان قد أدمن التجسس .

كان ينتهز وهو تحت الحراسة أية فرصة لكى يقدم المعلومات لأجهزة الأمن الأمريكية .

مثلا كانت الدنيا كلها مقلوبة على مختطفى السفينة الايطالية «أكيلى لورو» .. وكانت مصر تقول أن المختطفين قد خرجوا منها بالفعل .. لكن ممدوح فى ذلك ، وبعد أن شاهد الاخبار فى التليفزيون طلب لقاء احد ضباط المباحث الفيدرالية لأمر هام .. وفورا . وفى اللقاء قال «ممدوح» متطوعا بالنصيحة : «انا عارف بلدى كويس» .. «مش ممكن يكونوا خرجوا منها .. دول ارهابيين.. لازم يمروا فى مصر على المخابرات .. وأمن الدولة .. وفيش وتشبيه .. ثم اتصالات مع منظمة التحرير وبعض الدول العربية .. يعنى قصة تحتاج عدة أيام لكى تتم » .

وقصة «أكيلى لورو» معروفة .. فبعد عدة أيام من الاعلان المصرى عن خروج المتهمين بالخطف الى جهة غير معلومة ، اختطفت المقاتلات الامريكية طائرة مصرية كانت تحمل المختطفين بناء على معلومات تصنت على مكتب القرار المصرى .. ولكنها أيضا كانت مبنية على تحليل قدمه جاسوس مصرى فى الخارج ، تطوع بإبلاغ .. وتحول من مجرد مخبر الى مستشار يدلى برأيه ، يعرف أن الرأى قد يصبح أحيانا معلومة لها قيمتها ، لو أدت الى معلومة أخرى(*)

ولكن الواضح أن المعلومة كانت ذات قيمة بالفعل ، فبعد أيام من انتهاء العملية ، وبينما كان مساعد وزير الخارجية الامريكى فى جولة سريعة مفاجئة بمصر حتى يهدئ من خاطر المسئولين بعد اختطاف الطائرة .. كان ممدوح يتلقى خطابا من مساعد الرئيس الامريكى رونالد ريجان يقول له فيه : «اننا نشكرك على الخدمات الجليلة التى قدمتها للولايات المتحدة فى حادث اختطاف السفينة اكيلى لورو» .

(*) اقرا الفصل الأول بعنوان «التجسس على الرئيس» .

وفيما بعد كان ممدوح يظهر الخطاب لكل من يراه .. ويحكى له القصة كلها .. ثم يقرأ رسالة سمعها الرئيس بالانجليزية ويترجمها الى العربية .. ويعتبر أن الخطاب دليل قاطع على أهميته ، وعلى انه يستحق المكافأة التى اعلنت عنها الولايات المتحدة لكل من يقدم معلومة قيمة تساعد فى القبض على أحد الارهابيين .. بهذه الورقة كان يطلب ٢ مليون دولار عن خدماته .

ليس بها فقط فى الواقع ..

لقد قال لى ضمن روايته للقصة : فى أحد المرات أبلغت عن عملية اقتحام فلسطينية للشواطى الاسرائيلية قبل أن تحدث بشهرين . وأضاف وهو غارق فى حالة عارمة من النشوة والفخر .. «لقد أبلغتهم أن العملية الانتحارية سوف تتم باستخدام زورقين مطاطين . وأنهما غالبا سينطلقا من احدى قواعد منظمة التحرير فى لبنان» . وقد سألته : كيف عرفت ؟! فأجاب : يا عزيزى كنت من حين لآخر أترك منظمة حماية الشهود ، تحت غطاء التنكر والاسم الجديد ، وأهبط الى المجتمعات العربية فى نيويورك ونيوجرسى . ثم أضاف ساخرا : انك من بين هؤلاء العرب الذين يعيشون فى أمريكا تستطيع ان تعرف فورا ما يحدث داخل كل دولة عربية ... ثم أن العربى لا يحفظ سرا لنفسه ، دائما ما يفخر بأعماله قبل أن تتم .

وقد نسى ممدوح أنه عربى ، رغم أنه كان يحمل اسم مايك جون وولف ، ونسى بالتالى انه لا يحفظ سرا يعرفه عن مواطنيه .. وأنه كان يبيع السر فورا دون أن يبادر المشترى بطلبه .

لكنه كان يخطط للحصول على المقابل الثمين .

كان يطمع فيما هو اكثر من الجنسية ..

كان يطمع فى ٢ مليون دولار ، لقد جن بسبب هذا الرقم الضخم ، حتى انه فى حقيبته السوداء كان يحتفظ بعشرات من صور الاعلان عن المكافأة .. ويعتبرها أحد أهم مستندات المطالبة بحقوقه .

لكنه لم يحصل على أى منها .. لا الجنسية .. ولا المليونين بالطبع .

بل إن الامريكان بدأوا ، رغم خدماته المتوالية ، فى سحب الحد الأدنى من المميزات الذى اتيح له .

غير أننا نتوقف لنتسائل ما هى قصة الاثنين مليون دولار ؟

لقد بدأت الحكاية ببرنامج يدعو العرب الى أن يصبحوا مليونيرات .. وكان هدف البرنامج أن يحول ٢٠٠ مليون مواطن عربى الى جواسيس يجمعون المعلومات لصالح الولايات المتحدة وقد كان الاعلان صريحا واضحا : «إذا شئت أن تصبح مليونيرا عليك أن تكون مخبرا جيدا للمخابرات الامريكية والشرطة الفيدرالية» . وقال الاعلان الذى نشرته وكالة الأمن الدبلوماسى فى وزارة الخارجية الامريكية أن الولايات المتحدة خصصت جائزة قيمتها ٢ مليون دولار مقابل أية معلومات عن الارهاب والارهابيين .

وأضاف الاعلان الذى نشر فى صحف دولية عديدة ، مزينا برقم «٢» على يسار ستة أصفار ضخمة : إذا كانت لديك أية معلومات فيرجى الاتصال بالشرطة أو بمكتب المباحث الفيدرالية الامريكى F.B.I أو اتصل بنا على رقم تليفون «....» وإذا كانت خارج الولايات المتحدة يرجى الاتصال بأية سفارة أمريكية ، أو اكتب لنا على العنوان التالى «.....» .

ولم يكن ملفتا للنظر أن الاعلان تم نشره بطريقة غير مألوفة عن طريق الصحف والدوريات

الامريكية ، وفى عدد من الصحف العربية الصادرة فى أوربا وأمريكا . وإنما كان الملفت أن الاعلان جزء من برنامج منهجى شامل .. وقد انشئ البرنامج بموجب القانون العام الامريكى رقم ٥٣٣ - ٩٨ والذى صدر عن الكونجرس عام ١٩٨٤ ، ثم بموجب قانون الأمن الدبلوماسى الشامل ومكافحة الارهاب رقم ٣٢٩-٩٩ ، والصادر ١٩٨٦ .

وقد تولت وكالة الأمن الدبلوماسى التابعة لوزارة الخارجية الامريكى مسئولية تطبيق خطة توزيع الجوائز على من يسمون بالمخبرين الناجحين .. الى درجة أنهم أعلنوا فى ديسمبر ١٩٨٨ عن تكليف وزير الخارجية بمنح الجوائز لكل من يقدم «معلومات تؤدى الى الوقاية أو احباط أى عمل ارهابى قبل تنفيذه» .. وبمقتضى هذا الأمر أصبحت الوكالة عبارة عن شرطة عالمية أو وكالة مخابرات كبرى لما يسمى بالنظام العالمى الجديد .

وبشكل عام يوحى تنظيم هذه الوكالة مدى الأهمية التى تركز عليها مراكز القرار فى واشنطن على هؤلاء المخبرين المنتشرين فى جميع انحاء العالم . ولهذا فإن للوكالة ادارة جماعية تضم ممثلين عن وزارة الخارجية ووزارة العدل .

ومجلس الامن القومى ووكالة الخابرات المركزية C.I.A ومكتب التحقيق الفيدرالى F.B.I .

وتتولى هذه اللجنة المشتركة تحديد الجوائز ، والتوصية بمنحها من قبل وزير الخارجية ، فضلا عن دراسة وبحث كافة أوجه هذا البرنامج .

وكان واضحا أن هدف البرنامج هو تجنيد أكبر عدد ممكن من الجواسيس العرب ، لكى ينهمر سيل المعلومات على واشنطن من جميع الدول العربية .. وكان واضحا أن البرنامج يعرف النوعية التى يبحث عنها ، فنشر الاعلان كثيرا فى لبنان حيث تتجمع اطراف خيوط عربية عديدة.. وبدا كما لو أن هذه الاعلانات دعوة للمواطنين العرب للانخراط فى ورشة ضخمة للبحث عن كل شيء من الممكن أن يلحق الأذى بالأمريكيين .

ويقول مسئول فى مكتب التحقيقات الفيدرالى «أننا لا نقبل أية معلومات .. يجب أن تكون المعلومة نزيهة وصحيحة» .. خاصة وأن قيمة الجائزة ترتفع بعد توقيع اتفاق هام بين وزارة الخارجية الامريكية ورابطة النقل الجوى فى أمريكا ، ورابطة طيارى الطيران الجوى خلال عام ١٩٩٠ ، تعهدت فيه الرابطتين بمضاعفة قيمة الجائزة . وبموجب هذا الاتفاق وزعت وزارة الخارجية حوالى ١٢ جائزة قيمة كل منها ٢ مليون دولار . فضلا عن المبالغ الاضافية التى تدفعها رابطتا الطيران والطياريين .

ولم يكن «ممدوح» من بين الـ ١٢ الذين حصلوا على الجوائز .

وقد حاول أن يكون من بينهم .. فكان الرد قاسيا .

قيل له إن لدينا معلومات عن أنك هددت باغتيال الرئيس الامريكى رونالد ريجان . وفى أمريكا مجرد التفكير فى مثل هذه الأمور يؤدى الى السجن .

ولم يتعظ «ممدوح» من السيف الذى اشهر فى وجهه . فقال لهم : لقد بعتم ملفى لمنظمة التحرير الفلسطينية .. إن لدى معلومات عن أحد الضباط قبض ١٥٠ ألف دولار حتى يختفى اسمى تماما من كومبيوتر المباحث الفيدارلية .

فى هذه المرة كان الرد عمليا .

أصطحبه أحد الضباط الى مبنى فيدرالى فى لوس انجلوس لا يبعد كثيرا عن القاعدة

الامريكية العسكرية التى كان محبوسا بها .. وهناك نال علقة ساخنة ، وصفها بنفسه بأنه «علقة لا يمكن أن يتعرض لها حرامى جزم فى جامع» .. وقد كان الوصف بليغا ، لأن «ممدوح» قبطى.. لم يدخل جامع !!

وفى هذه الاثناء سمح لممدوح بأن يستدعى الفتاة التى يحبها فى مصر . ويتزوجها فى أمريكا، بعد أن غيرت مذهبها المسيحى من كاثوليكى الى ارثوذكس .. المذهب الذى ينتمى له ممدوح .. وفى حفل الزفاف هدئت معه الأمور .. وحضر الاحتفال عدد من الضباط والاصدقاء ، بعضهم كان قد شارك من قبل فى مناورات النجم الساطع فى مصر .

وبعد هذا بأيام اصدمت به سيارة .. ولم يكن فى جسمه عظمة وادحة فى مكانها .. وقد دفعه الألم الى يقول أن يقول الحادث مدبر .. وأن سلطان الجاولى كلف عملائه بهذا الحادث لكى ينتقموا له من شهادة «ممدوح» فى القضية .

ولم تتوقف فصول القصة ..

ففى يوم ١٦ مايو ١٩٨٧ أدرك ضباط المباحث الفيدارلية أن «ممدوح» لن يسكت .. وأنه لايدرك طبيعة الموقف ، وأنه لن يتوقف عن المطالبة بالمكافأة الوهمية ، ولهذا تم ترحيله مع زوجته الى مصر .. فرجع خالى الوفاض من أى مليم ، إلا من شىء واحد فقط .. هو أن اخيه وأمه أعلنوا لكل من يعرفونه فى أمريكا انهما تبرئا من «ممدوح» ..فى محاولة منهما للابتعاد عن أية مشاكل قد يسببها لهما ممدوح .

وكانت القصة برمتها مؤلمة .. سنوات ضاعت بلا ثمن . بل انها اضافت خسائر جديدة .. كان من المفروض ان تزيد من ارباحه ، لكنها كنت امامها ارباح السنوات الى سبقتها . ولهذا فهو لم ينسى .. وعاد يكرر الموقف عندما وصل الى بيته فى الاسكندرية بمنطقة كليوباترا .. حكى للجميع قصته .. حتى الكلب الذى اشتراه واطلق عليه اسم «ببصى» سمع القصة .. وكان من الطبيعى أن يتوجه للقنصلية الامريكية فى الاسكندرية .. ويعيد رواية القصة من جديد .. وكان من الطبيعى كذلك أن يرد موظفى القنصلية على قصته باتهامه بالجنون .. وأن يرفض القنصل فى كل مرة طلبه المتكرر بالسفر الى الولايات المتحدة .

لقد أصبح ممنوعا من دخول أمريكا التى ساعدها ..

وقد أصبح وصفه عند هذه الدولة «المجنون» .

لكنه لم يكن أبدا كذلك ..

وأكبر دليل على هذا انه يرفض ان يفصح عن مصادر معلوماته . وانه لم يقل كيف عرف قصة الهجوم على الشاطئ الاسرائيلى بالذوارق الفلسطينية . وقال بدلا من أن يوضح : «احنا بنشم الهواء » . وهو أيضا لم يكشف كيف عرف ان ملفه السرى قد سرق ، ثم بيع .. ويرر ذلك بكل وعى قائلا : «كيف اكشف عن مصدرى وهو الذى سيشهد لصالحى فى هذه القضية عندما أعود لأمريكا» .

وعندما يكتشف أن الحديث صار جادا .. يعود الى استدرار العطف : «انا اتظلمت ، اتذليت ، اتخرب بيتى ، ولكن يكفى شىء واحد فقط هو احترامى لنفسى» !

انه نموذج غريب للتجسس الامريكى على عصر مبارك .. يعرف ماذا يفعل ليلفت الانظار ، ويحقق هدفه .. وقد كان هذا هو سبب سفره لاسرائيل ، حتى يحصل على تأشيرة دخول

لأمريكا .. فهو قد قال : انها أقرب بلد بها سفارة أمريكية لكى «اتمكن من أن اقبض التأمين عن حادث السيارة» .

وقد منعته الحكومة المصرية من السفر لاسرائيل مرة ثانية .. فعاد لتقمص حالة الجنون وقال: «لو منعونى مرة أخرى سوف أطلب الجنسية الاسرائيلية» .

وعندما استمر الحديث بيننا عن قصة سفره لاسرائيل اكتشفت سبب آخر لكى اقتنع بأنه غير مجنون ، فقد استغل الرحلة لكى يتحدث مع عدد من الصحف العبرية كنوع من الضغط على الرأى العام الامريكى .. لأنه يتصور أن الصحف الامريكية تهتم بما ينشر فى إسرائيل » . وهناك اكمل مكاسب الرحلة بزيارة الاماكن المقدسة ، وبالمرة وقع عقدا لبيت كان قد اشتراه من يهودية ، هاجرت الى تل أبيب ، عن طريق وكيل لها فى مصر .

انها قصة معقدة لعميل أصبح «كارت محروق» .. يتكلم كثيرا ، ويخضع للضغوط عندما تلوح له احدى الجهات بالعقاب ، وهذا هو السبب الذى جعله يوقع على اقرار للسفارة الامريكية يقول فيه : «إننى اتراجع عن شهادتى فى قضية سلطان الجاولى» ، وقد وقع على هذا التراجع بعد ضغوط عديدة وتهديدات من السفارة الامريكية بالقاهرة ومسئول القنصلية بالاسكندرية .. وهو يقول لو لم أوقع كنت سأفاجئ بتلفيق اى تهمة لى من أمريكا للحكومة المصرية وأجد نفسى فى غياهب السجون .

انها نموذج امريكى لعملية تجسس اشترك فيها مصرى ، على مصريين ، لصالح الولايات المتحدة .. وفى عز الثمانينات يملس فيها اى شىء غير حقيقى ..

لكنها فقط معبأة بالغرائب ، ولعل أغرب ما فيها أن الجاسوس يؤكد انه سوف يعود لأمريكا لو أراد . وقد قال : «سأفعل ذلك على اسنة الرماح ، سوف اختطف طائرة» !

الفصل الخامس

«عملية سعيد بدير»!
اغتيال مستشار الرئيس!

كان هاما أن يقتل مصري سابق بعد أن أرسل خطاب يطلب فيه النجدة من الرئيس حسين مبارك .

وكان لافتا للأنظار أن يسجن ضابط آخر في أمريكا ، قيل أنه كان ينفذ عملية بأمر من المشير أبو غزالة .

وكان غريبا أن يكون الأول عبقريا .. وأن يكون الثاني متهما بنقل تكنولوجيا سرية لمصر .

ولم يكن غريبا أو مثيرا أو لافتا للأنظار أن تقف الولايات المتحدة وراء الحادثين .. السجن والقتل !

■■

يعرف كثيرون من مشجعي الكرة في مصر «اسم دويسبرج» .. خاصة «الزمالكاوية» .. فهم يعرفون انه اسم نادي الماني عرض شراء نجم نادي الزمالك النيجيري «ايمانويل أمونيك» ب ٨٠٠ الف دولار . ويعرفون أن النادي الألماني عرض استضافة نادي الزمالك في معسكر تدريبي لمدة عشرة أيام كنوع من التشجيع لاتمام الصفقة .. ويعرفون أن الزمالك بعد أن وافق علي عرض الشراء ، عاد ورفض ، وقرر الانتظار حتي تنتهي الدورة الـ ١٥ لنهائيات كأس العالم ، ربما يزيد سعر ايمانويل عن هذا الرقم الضخم .. ويعرفون أن بعض أعضاء مجلس ادراة الزمالك كانوا يحلمون بوصول السعر الي ٢ مليون دولار .ولكنهم لا يعرفون أن دويسبرج كانت المقر العلمي في المهجر للعبقري المصري سعيد بدير .. وأنه قتل هناك

لا يعرفون أن هذا العالم الفذ دعا الرئيس مبارك لأن يزوره في الجامعة خلال رحلة قام بها لألمانيا ليطلع علي أبحاثه ، ولا يعرفون أن دعوة العالم للرئيس وصلته متأخرة ، وأن الرئيس لم يتمكن من أن يلبيها .

إنهم ، في الواقع ، سواء كانوا من الزملكاوية أو الأهلاوية أو الاسماعيلوية ، لا يعرفون الكثير عن تلك القصة شديدة التعقيد ، صعبة التصور ، غريبة التطور .

إن قليلين هم الذين سمعوا عن سعيد بدير .. «أينشتين المصري» !

لم يكن الفنان الراحل السيد بدير يدرك عندما تلقف ابنه الاخير «سعيد» بين يديه ان ذلك الطفل سوف يصبح يوما هدفا لأنشطة المخابرات الأمريكية .. كان فقط في حالة سعادة لا توصف تكررت مع ميلاد كل طفل جديد له .. شعور أبوي .. شعور يجمع بين الحنان واللهفة والأحلام الكبيرة .. شعور كان أكبر بكثير من تلك اللفافة البيضاء التي كانت تضم «سعيد» عندما ولد في يناير ١٩٤٩ .

وكان سعيد مختلفا في الأسرة ، ليس لأنه آخر العنقود ، وأصغر الأبناء .. ولكن لأنه أصبح كتلة من الذكاء تسير علي قدمين ، وترتدي ملابس ، وتتخطي المراحل التعليمية في ثبات وتفوق ، حتي حصل علي الثانوية العامة بمجموع ٩٥ في المائة ، جعله الطالب الثاني علي مستوي الجمهورية .

عندما حقق سعيد هذا الانجاز تصور السيد بدير أنه ابنه الذي يتمتع بعيون واسعة براقة ، وحاجبين كثيفين متساويين ، سوف يصبح طبيبا يواصل نبوغه في مجال الجراحة .. لكن سعيد كان معبئا بكل أحلام سنوات الستينات ، وأماني الشباب الذي تربي في حضن عبد الناصر ، ولهذا قرر أن يكون تفوقه داخل بدلة «كاكي» .. وبالتحديد في الكلية الفنية العسكرية .

ولم يتغير الحال من الملابس المدنية الي الملابس العسكرية ، وظل خط سعيد البياني ينطلق في تصاعده ونموه ، حتي صار معيدا في الكلية الفنية في عام ١٩٧٢ ، ثم مساعد استاذ في عام ١٩٧٦ ، فمدرسا في عام ١٩٨١ .. وبينما تتوالي الترقيات كانت أيضا الانجازات العلمية تتوالي هي الأخري .. وفي خلال سنوات قليلة أصبح سعيد بدير عقلا مصريا عسكريا هاما ، يضع يده في الحديد فينبض بالحياة ، ويمد أبحاثه الي الطائرات المهملة فتتحول الي مقاتلات عملاقة ..

وتضخم ملف ابتكاراته ..

فتضخم أيضا ملف تنقلاته .. من مدرس بالكلية الي رئيس قسم الموجات والهوائيات بإدارة البحوث والتطويرات في قيادة القوات الجوية ، ثم مستشارا علميا وعسكريا برئاسة الجمهورية .

وبينما كان هذا يحدث ، كانت مخاوف الغرب من هذا العقل المصري تتزايد .. مخاوف بلغت درجة الرعب ، خاصة وأن أصابع وعقل سعيد بدير كانت سببا هاما وراء تطوير الطيران الشرقي الذي تملكه مصر .

إن سعيد في تلك المرحلة لم يعد مجرد عالم مصري نابغ ، وإنما أيضا عقبة أمام تفوق أمريكيا ، وعقبة أمام مبيعات السلاح التي من الممكن لو أن مصر استغنت عن هذه الهياكل الشرقية التي جعل منها سعيد بدير شيئا ذا قيمة في السماء .

في واقع الأمر كان عقل سعيد بدير أكبر كثيرا من المعامل في مصر ، يحتاج لمراجع عديدة ، وكتب متقدمة وأجهزة متطورة ، إن الأوضاع العلمية في مصر كانت كفيلة بأن تحول عقل العالم الفذ الي كائن يضمر .. محدود .. ضيق .. تتلاشي قدراته بمضي الوقت .. تقضي علي طموحه ، تجعله يهتم باصلاح درج مكتبه بدلا من تطوير طائرة أو صاروخ . ولهذا انطلق سعيد بدير ليعمل أستاذا زائرا في جامعة دويسبرج في المانيا .

كانت مدة العقد سنتان تبدأ في عام ١٩٨٧ .

وكانت المبررات التي دفعت الجامعة لتوقيع العقد معه عديدة .. ففي هذه الاثناء كان سعيد بدير قد تحول الي اسم لامع في محافل العلم الدولية .. فهو ضابط متقاعد في القوات المسلحة المصرية ، حصل علي بكالوريوس علوم عسكرية ، وبكالوريوس هندسة كهربائية بتقدير عام امتياز .. وكان أول من حصل علي ماجستير في الهندسة الكهربائية من الكلية الفنية العسكرية .. ثم دكتوراه الفلسفة في الهندسة الالكترونية من جامعة كنت بانجلترا عام ١٩٨١ ..

لم يكن كل هذا هاما بجانب أمور عديدة أخري .. فقد شارك الدكتور سعيد في مؤتمر علمي عن الدوائر والنظم والاتصالات بولاية بنسلفانيا قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره .. ودعي لعرض مقال له في المؤتمر الأوربي للإتصالات والتحكم الآلي في ابريل ١٩٨٠ وفي هذه الاثناء تلقي الدكتور سعيد اكثر من عرض مغر لكي يبقي في أوربا والولايات المتحدة ، ويتحول الي وقود في ماكينة التكنولوجيا الغربية العملاقة .. لكنه أدرك الحيلة فرفض العرض .وكانوا هم يأملون أن يتحول مع الوقت الي كائن بلا قيمة إذا ما عاد إلي الروتين في مصر . لكنه خيب تلك التوقعات .. وصار نجمه يلمع .. وتفوقه يزدهر ..مقالاته التي تكشف مضمون أبحاثه كانت تنشر في العديد من المجلات العلمية .ومع التطور اختير كعضو مخضرم في جمعية مهندس الكهرباء والالكترونيات الأمريكية عام ١٩٨٤ .

ليس هذا فقط ، بل انه صنف كواحد من ١٢ عالما في مجال الميكرويف علي مستوي العالم .

بل انه أيضة كان الثالث بين هؤلاء ..

وبالطبع كان الآخرون جميعا إما أوربيون أو أمريكيون . وكان سعيد بدير الوحيد الذي يعمل خارج تلك المنظومة .. حتي جاءت اللحظة المناسبة ووقع عقدا للعمل كأستاذ زائر في جامعة «دويسبرج» براتب شهري قدره ٦ آلاف مارك .

كان هدف سعيد بدير من هذه المرحلة العلمية الطويلة ..٩٠والأخيرة .. أن يشبع طموحه العلمي .وكان في ذات الوقت قد وعد نفسه بأن يمد بلده بكافة الأسرار العلمية التي يمكن أن يتوصل اليها .. وقد كانت كل المقدمات تشير الي انه سوف يصل الي نتائج قيمة ، لاسيما وأن الألمان بدأوا بالاستفادة الفعلية منه في مشروع ضخم كان يحمل اسما كوديا هو «رقم ٢٥٤» .. وقد كان المشروع يتلقي دعما من هيئة البحوث الألمانية .

وكان شبح سميرة موسي عالمة الفيزياء النابهة التي اغتيلت في الولايات المتحدة عام ١٩٥٢ يطارد العالم الغارق في ابحاثه في المانيا ، ويستهلك موادا كيماوية لأبحاثه تتكلف كل يوم عشرة آلاف دولار . وكانت قصة الدكتور سمير نجيب عالم الذرة المصري الذي اغتيل في ديترويت عام ١٩٦٧ ماثلة في ذهن الدكتور سعيد .. وكانت مأساة يحيي المشد الذي أشرف علي البرنامج النووي العراقي واغتيل في فرنسا عام ١٩٨٠ لم تزل طازجة .

وكانت الهواجس تجد ملعبا شامخا لها في داخل سعيد بدير ..خاصة وأنه عرف معلومات عن جهات أمريكية غير معروفة تمول المشروع «٢٥٤» .

ورغم شكوكه كانت دوافع سعيد بدير لإكمال العمل أقوي .. انه في خلال أيام كان يحقق انجازات عديدة ، تتحول أفكاره المرسومة علي الورق الي واقع حقيقي .. الأحلام تمشي أمامه في المعمل .. لم يكن وحده الذي يحقق انجازا ، لكنه كان الأكثر دفعا للمشروع . بل انه يمضي في طريق أبعد . وقد عرف الجميع بما يقوم به سعيد بدير منذ وصوله الي «دويسبرج» ، لكن المعرفة تحولت الي حقائق أمامهم بعد عام من وصوله .. وأصبح في حكم المؤكد أن العالم المصري توصل الي حقائق علمية أكيدة في مجال الهوائيات والميكروويف والاتصال بالفضاء .

وكانت رائحةالخطورة التي تفوح من معمل الدكتور سعيد معناها أنه يقترب من القدرة علي التشويش علي الأقمار الصناعية .

ولأنه لا يلعب في تكنولوجيا من النوع العادي .. لأنه لا يبحث عن طريقه جديدة لتكبير حجم الطماطم ،ولأنه لا يبحث في انتاج زيت شعر لعلاج الصلع .. ولأنه لا يطور أنوعا من الهامبرجر .. ولأنه لا يعكف في معمله من اجل اختراع أحمر شفايف .. ولأنه تجاوز كافة الخطوط الحمراء في ابحاثه ، كان من الطبيعي أن يوضع تحت المجهر ..خاصة من مخابرات الدول الثمانية التي كانت تملك اقمارا صناعية في ذلك الوقت ، لاسيما الولايات المتحدة واسرائيل .

إن مصانع العطور والشيكولاته والشامبو تملك أجهزة مخابرات ، وتستخدم جواسيسا ، وعلماء .. تراقب بعضها البعض ، وترشو موظفي المصانع المنافسة لتكشف اسرار الوصفات التجارية .. وتخوض حربا قد تصل الي حد القتل . ولم يكن سعيد بدير خبير اغذية يصنع نوعا جديدا بتركيبة مختلفة من الشيكولاتة .. ولهذا كان عاديا أن تبدأ المضايقات .

من جانبها بادرت المانيا بالتعامل مع الجانب المعروف في قصة سعيد بدير .. وعرضت عليه أن يقدم معلوماته عن القوات الجوية المصرية . إن هذا ما قالته زوجته فميا بعد لجريدة الأهالي

خلال حديثها مع ثروت شلبي في العدد المنشور يوم ٩ اغسطس ١٩٨٩ .. أي بعد اغتياله بأيام .. وقد قالت أيضا : «لقد استغاث بالرئيس حسين مبارك في خطاب مسجل أرسله له .. وطلب الحماية» ، لكنه قتل .

كانت حادثة القتل أعلي وأبرز وآخر النقاط الدرامية في قصة سعيد بدير .. لكن النقطة الأخيرة كانت تسبقها مقدمات عديدة .

كان الضابط السابق في الجيش المصري غارق حتي أذنية في ابحاثه ، ينتقل بها من معمله الي مقر اقامته في ألمانيا .. عندما طرق الباب فجأة ، وجد أمامه جيرانه الألمان .. وهو أمر نادرا ما يحدث في أوربا .. فالجيران لا يطرقن أبواب بعضهم إلا إذا حدثت كارثة . قال له أحدهم : ليس من الطبيعي أن يشوي لحوما في الشرفة . أفاق سعيد من دوائر الأفكار التي كانت تتقاطع في رأسه دون أن يدري أن هناك حريقا في شقته .. وانطلق الي الشرفة فاكتشف أن اواني الزهور البلاستيكية قد احترقت .

عادة الهواجس لتعلب من جديد .

لكنه اكتفي بأن يبلغ سكرتيرة الجامعة ، ومهندس يرتاح له اسمه «هوفمان» بما حدث ..لم يكن يظن أنه من الممكن أن تكون السكرتيرة والمهندس نفسه عيونا عليه ..كان غارقا في عمله ، ناسيا أية تعليمات أمنية يمكن أن يطبقها علي ما يفعل .

ومضي يكمل عمله ..

وتكرر سيناريو الحريق مرة أخري

لكن النار انتقلت هذه المرة من أواني الزهور الي سلة كان يضع بها بعض الأوراق .

وأبلغ البوليس .

كان الهدف أن يعيش في توتر دائم ، وأن يسيطر عليه الاحساس بالقلق والخوف من ذلك المجهول الذي لا يعرف ماذا يريد .. هل يرغب في أن يثير توتره أم انه يريد أن يشتت أفكاره أم الحيلولة دون مواصلة خططه ، أم الضغط عليه ؟ .. لا أحد يعرف ، خاصة وأن علامات الاستفهام تزايدت وتعقدت .. لاسيما أن الحوادث الغامضة تكررت ، وتأكد العبقري المصري أن هناك أياد غريبة تمد يدها الي منزله وتعبث بأوراقه ، بل وتلعب بأصابعها في براويز الصور وإطارات اللوحات .. ولا تكتفي بهذا فقط ، وإنما أيضا تفتش في المكتبة والملابس والمطبخ .

وكأنها كانت تبحث عن الاسرار خلف الشوكة والسكين !

وارتفع منحني التوتر داخل سعيد بدير ، خاصة وأن زوجته قالت له ذات مرة .. «بالأمس ، وبينما أنت في المعمل ، كنت أنا في حجرة النوم مع الطفلين ، فزعت ، شعرت أن هناك شخصا بالخارج ، وتصورت انك نسيت شيئا وعدت الي البيت لتستعيده » .. قال سعيد وهو مندهشا : لم أعد أبدا ، ولم أنس أي شيء .

هنا قرر سعيد بدير أن يضع حدا لتوتره ، علي الأقل مخاوفه وقلقه علي أسرته الصغيرة .. ولهذا أعاد زوجته مع الطفلين الي مصر .

حدث هذا في يوم ١٤ ابريل .

وفي يوم ٩ مايو حاول سعيد بدير أن يتخطي مخاوفه ، ويقتل شكوكه ، بعد أن غلبته حاسته العلمية ، فعاد الي ألمانيا ليكمل أبحاثه .. خاصة وأنه وصل الي نقطة هامة حول موضوع

«الهوائيات والميكروويف والاتصال بالفضاء وإمكانيات التشويش عليه» . ورغم أن الأبحاث كانت لم تزل في إطار تصوراتها النظرية فقد استشعر الامريكان خطورة ما يقوم به سعيد بدير . ولهذا عرضت عليه وكالة «ناسا» لأبحاث الفضاء أن يعمل معها .

وكان العرض مغريا للغاية ، الي درجة أنه مفتوح علي البحري .. لقد كان عقدا علي بياض المطلوب منه أن يوقعه .

وفيما يبدو فإن العرض كان هو «جزرة الاغراء» بينما كانت عصا التهديد تعمل في الاتجاه العادي الذي كانت تسير فيه .. عادت المضايقات والتهديدات ، واستمرت الحوادث الغريبة ، وظلت الأوراق تختفي ، ومسودات المعادلات تطير في الهواء ، والمراجع تسرق .. وكأن هناك أحدا يراقب خطوت تفكيره ، ويريد أن يعثر علي إتجاه لما يقوم به سعيد بدير .

لكن العالم المصري ظل يحتفظ بطل هذه الهواجس داخله ..

غير انه انتقل من مرحلة الشك الي اليقين .. تملكه شعور كامل بالخوف .. الرعب .. أدرك فجأة أنه يلعب في مضمار الخطورة .. وأنه لو لم ينضم الي المنظومة سوف يقضي عليه فورا .. وكانت آخر عروض الانضمام الي تلك المنظوة مازالت طازجة ، وكانت هناك توقعات بأن يتلقي عروضا أخري خلال أيام في الولايات المتحدة حيث سيعقد مؤتمر هام جدا في يوم ١٣ يونيوا ، وافقت الجامعة الألمانية علي أن يشترك فيه .

وقد أدرك سعيد بدير أن العروض الهائلة التي ستنهال عليه ، قد تكون مصحوبة بخطر أكبر . فنسي أبحاثه .. واستسلم لشعوره بالخوف . وعاد الي مصر فجأة في يوم ٩ يونيو . وقد كانت عودته مريبة لاسيما وأنه لم يذكر لأي شخص أي أمر خاص بهذا . ولذلك سألته زوجته عن السبب .. فقال : «لقد خشيت أن يتعرض لي أحد في أمريكا» .

وقد قالت الزوجة فيما بعد عن أسباب هروبة من حضور مؤتمر أمريكا :«كان يخشي الاغتيال إذا طلب العودة الي مصر ، وعدم الاستمرار في أمريكا .. وكان يخشي أن يحتكروا جهوده وابتكاراته العلمية ، وهو يتناقض مع وطنيته والتزامه القومي ، لاسيما وأن الولايات المتحدة اشترطت عليه أن يحصل علي الجنسية الأمريكية عندما يوقع علي عقد وكالة «ناسا» لأبحاث الفضاء» .

وفي واقع الأمر كان الهاجس الأمني قد بدأ يمسك بتلابيب أفكار سعيد بدير .. تذكر فجأة أنه ليس فقط عالم نابغة ، وإنما هو تاريخ طويل من التقدم العلمي ذو الأهمية الحربية .. تذكر أنه كان رئيسا لقسم بحثو الموجات والهوائيات بإدارة البحوث والتطويرات الفنية بقيادة القوات الجوية .. وتذكر كذلك انه كان يعمل مستشارا علميا وعسكريا برئاسة الجمهورية .. «الأهالي – مصدر سابق» .

تذكر كل هذا وقرر أن يستنجد مرة أخري بمصر ، أن يصارحها بهواجسه .. فالمطلوب ليس قتل شخص ، وإنما اغتيال ملف مصري كامل . ولهذا أرسل سعيد بدير خطابا الي الرئيس مبارك يطلب فيه العون.. كان هناك شعور أبوي يربط بينهما، ليس فقط لأنه كان تلميذا له في القوات الجوية، ولكن أيضا لأن الرئيس كان مرتبطا بالفنان سيد بدير الذي خسر طيارا آخر – هو شقيق سعيد – في حرب اكتوبر .

وكتب سعيد لأحد اشقائه قائلا : أخي الحبيب جدا سمير : سلامي وحبي وأشواقي ارسلها

لك ، والله وحده أعلم كم أنت واحشني ومشتاق الي رؤياك .

أخي الحبيب جدا سمير : طبعا اللي حايشني أن اتصل بك أنني عامل مشكلة مع الألمان قبل نزولي ، ونزلت بصعوبة جدا بواسطة الناس بتوع مصر للطيران ..أنا مضبوط دايما زي ما أنت عارف لكن الافضل عدم الاتصال ولا تقلق إذا لم أتصل بك كثيرا ولكن لا تثير هذا الموضوع مع أي أحد حتي استطيع حله .

أخي سمير : مرفق طيه خطاب موجه للسيد / الرئيس / حسني مبارك ، برجاء تسلميه شخصيا «بنفسك» وبأسرع وقت الي رئاسة الجمهورية بمصر الجديدة وتأخذ رقم له .. واعتبر هذا الموضوع هام جدا .. لو تقدر تعمله صباح السبت مبكرا يكون ذلك أفضل بكثير ..ضع له الأولوية الأولي .

وأخيرا لك مني كثيرا الأشواق .

«نشر نص الخطاب في جريدة الانباء في يوم ٨ أغسطس ١٩٨٩» .

ولكن الخطاب يجب ألا يمر قبل أن نعيد قراءته مرة أخري .. فهو معبأ بالمعلومات وعلامات الاستفهام أيضا .

إنه أولا يثير علامة تعجب حول «مشكلة مع الألمان» .. ويؤكد أن سعيد بدير كان يتلقي معاونه من نوع ما من «موظفي مصر للطيران» .. ثم هو يؤكد أنه مراقب حتي بعد أن عاد الي مصر : «أنا مضبوط دايما زي ما انت عارف» .. وهو يعاني من مشاكل أمنية «لا تثير هذا الموضوع مع أحد» ..

وهو كذلك يحاول أن يحل تلك المشاكل «حتي استطيع حله» .. وفيما يبدو فإن الخطوة الأولي للحل الذي كان يتصوره هو ذلك الخطاب الذي أرسله الي الرئيس «ضع له الأولوية الأولي» .. والدليل تلك الدقة التي طالب بها أخيه في تسلم الخطاب «برجاء تسلميه شخصيا بنفسك وبأسرع وقت وتأخذ رقم له» .. والمعني الواضح أنه لم يكن يأمن لأي شخص آخر سوي أخاه ، حتي البريد ، فقد شدد علي كلمة «بنفسك» . ووضعها بين قوسين .

إن القصة في تلك المرحلة تدخل نوعا من الغموض . تبقي بها حلقة مفقودة .. خاصة وأن سعيد بدير بعد عدة أسابيع من الاختفاء عاد للظهور . وكان هذه المرة تحت لافتة شركة أسسها في مصر اسمها «بدير كونسكنت جروب» .. مجموعة بدير للاستتشارات . وبدأ اجراءات العمل ، فانهالت عليه العروض من جميع أنحاء العالم للمساهمة في شركته ، خاصة وأنه أعلن أن نشاطه سيكون تصنيع الألكترونيات .. وهو ما أزعج الكثيرون ، لأنه عندما قرر الظهور لم يبتعد عن المجال الخطير .. واقترب اكثر من الأقمار الصناعية والسفن الفضائية .

إن سعيد بدير كان يريد أن يغير اتجاه القصة بأي شكل .. بخطاب للرئيس .. بالهروب من المانيا .. بعدم حضور مؤتمر أمريكا .. أو حتي بترك الابحاث وتأسيس شركة تجارية ، لكن القدر كان يطارده حتي تمكن منه في يوم ١٣ يوليو ١٩٨٩ . وكان شكل ذلك بلاغ تلقاه قسم شرق بالاسكندرية من شرطة النجدة بسقوط شخص من أعلي عمارة في شارع طيبة بكامب شيزار ، ممددا علي الأرض ، تنزف منه الدماء .

وقال البلاغ الأول : إن الشخص الذي يبلغ من العمر أربعين عاما ، يحمل بطاقة بها وظيفة «عقيد متقاعد بالقوات المسلحة» يقيم في الشقة رقم ١٨ بالدور الثالث علوي العقار ، لكن محل

اقامته الرسمي ١٠ شارع مصطفي رضا بمنيل الروضة .

ولم يكن هذا القتيل سوي سعيد سيد برير !

إذن لحقوا به .

لكن القضية أمام أي ضابط عادي حقق فيها وقتئذ لم تكن سوي حادث يمكن أن يقابله في كل يوم .. وهكذا دونت الواقعة في محضر ، صفته اداري ، ورقمه ٤٢٩١ شرقي ، وتاريخه ١٩٨٩/٧/١٣ .وهكذا ظلت أوراق التحقيق المبدأية تمضي في الطريق الذي لا يعرف أي شئ عن أبعاد القصة : «وجدناه يرتدي جلبابا لونه لبني ، وتبين وجود جرح قطعي بمنتصف الفخذ الايسر ، وجرح قطعي فوق الركبة اليمني ، وجرح قطعي بوريد الذراع الأيسر عند المعصم» .. وعندما انتقلت القوة الي الشقة الموجودة العقار وجدت رائحة ، الغاز تملأ المكان والشقة مغلقة ، فقاموا بالاتصال بإدارة الدفاع المدني والحريق التي أرسلت قوة قامت بفتح باب الشقة واغلاق مصدر الغاز .

إن القصة حتي هذه اللحظة تستسلم تماما للحل العادي للغز .. وهو أن هذا الرجل الذي لا يعرف قيمته أحد من المحققين أو الجيران قد انتحر .. ولهذا مضت المعاينة في الطريق الروتيني : بالدخول الي الشقة وجدناها تتكون من صالة صغيرة وحجرة ، وبمواجهة الداخل حجرة مطبخ وحمام ، وعلي يمين الداخل حجرة النوم تطل علي شارع الطليعة المتفرع من شارع طيبة ، وبها سرير خشبي عليه مرتبة ووسادة ، وتبين وجود بقع من الدماء علي الوسادة ، كما وجد اسطوانة البوتجاز المملوءة التي تم غلقها بجوار السرير ، ومنضدة صغيرة أمام السرير عليها شفرة موسي حلاقة وآثار دماء .. ومن المعاينة تأكد أن المتوفي القي بنفسه من شرفة غرفة النوم المطلة علي شارع الطليعة» .

وبالطبع مضت الاجراءات في الطريق العادي .. وضع رقيب سري حكومي علي الشقة . وتم اخطار الأدلة الجنائية لإرسال خبير البصمات ، ونقلت الجثة الي مشرحة «كوم الدكة» .. وتم الاتصال بذوي الجثة لاستلامها .

ولا يعرف أحد ما إذا كان العميد سمير بدير –شقيق سعيد ، وحامل خطابه لرئيس قد فوجئ بالاتصال التليفوني الذي تلقاه من قسم باب شرقي في الساعة الواحدة من ظهيرة اليوم التالي ..خاصة وأن هذا الرجل بالذات كان يعرف الأخطار المحدقة بأخيه . ولكنه بالطبع تذكر ما حدث قبل الوفاة بعد أيام كان المناسبة «عيد الأضحي» .. وكان سعيد بدير في حالة توتر لم يشأ أن ينقلها لأبنائه وزوجته وسط أيام الفرحة .. ولهذا فإنه أخذهم جميعا الي بلدة زوجته في الزقازيق ، وقال لها ـ لزوجته ـ :«كوني هنا بعيدا عن أي خطر»

ولم تكن تدرك أنها لن تراه بعد ذلك أبدا .

ولم تكن تعرف ما إذا كان الزوج قد سلمها لأهلها ، تمهيدا لكي يسلم نفسه لقدره ..

لكنها . أبدا ، لم تكن تتصور أنه سوف ينتحر .

غير أن أوراق التحقيق مضت في هذا الاتجاه .. فتجرده من أي بعد له علاقة بشخصية القتيل أو تاريخه .. ومضي التحقيق يستمع الي الشهود .. ومن بينهم هشام محمد شعبان : «عمري ١٩ سنة ، طالب ، مقيم في ٢٠ شارع طيبة كامب شيزار شقة ١٧ .. شممت رائحة غاز البوتجاز من شقة المتوفي ، نزلت علي السلم فتأكدت منها ومن أن مصدرها شقة المتوفي ..

فاستدعيت محمد عبد الله -ابن البواب ، ودخلنا الشقة .. تصورنا أنه غير موجود .. دخلنا حجرة النوم ففوجئنا به نائم علي السرير والدماء تنزف من يده اليسري .. اترعبنا .. خرجنا من الغرفة.. وبعد ثلاثة دقائق فوجئنا به يقف أعلي سور البلكونة ويقفز الي الشارع» .

هكذا بكل بساطة .

عالم ، نابغة ، مؤمن ، ينتحر ، حاول التخلص من حياته بكل الطرق .. بقطع الوريد ، والاختناق بالغاز ، ثم بإلقاء نفسه من الشرفة .. وكأن العالم يمكن أن ينتحر بنفس الطريقة التي ينتحر بها أي شخص عادي .. وكأنه لم تكن هناك طريقة أخري .. وكأنه فقد الثقة في كل شيء حتي دفع بنفسه الي الموت .. وكأنه لم يكن يتلقي تهديدات .. وكأن أحدا لم يسأل نفسه لماذا يقتل شخص ذاته بينما هو في انتظار الموت الذي يهدده وهو يهرب منه في المانيا وأمريكا الي مصر .. وكأن أحدا لم يقل لنفسه لماذا لم يبق سعيد بدير إذن في أوربا وينتظر الموت هناك ليصبح شهيدا بدلا من منتحرا ؟!.

كل هذه الاسئلة بالطبع اثيرت ، خاصة علي لسان زوجته التي قالت في البداية :«زوجي كان رجلا مسلما أولا وقبل أي شيء آخر .. لا أصدق انه انتحر ، حتي لو اثبت تقرير الطبيب الشرعي ذلك .. أنا اكثر شخص يمكن أن يعرفه .. كان يثق في الله .. يعشق عمله وأطفاله .. كيف يترك ابحاثه الي هذه الحماقة» .

وفيما بعد كان الأمر مثيرا لكثيرين ، ووصلت رائحة الشكوك الي الجميع .. حتي الصحف المصرية التي عبرت عن ذلك بقولها : «الانتحار مستبعد لأن أنبوبة البوتجاز نقلت من المطبخ الي حجرة النوم وتسرب منها الغاز الي درجة أن من يسكنون الطابق شعروا بها .. ومعني هذا أن الغاز كان بالكثافة اليت تكفي لخنقه .. فكيف يقوم بعد ذلك وشرايينه مقطوعة ثم يلقي بنفسه من الشرفة . ثم أن من عادت سعيد بدير عندما يعمل أن يبعثر أوراقه وكتبه ومراجعه حوله .. لماذا كانت هذه المرة مرتبة تماما .. وكيف يقول التقرير المبدئ للطب الشرعي أن هناك ثلاثة كسور في عظام الفك وهو نوع من الكسور نادرا ما يحدث في حالات الالقاء بالنفس من شرفة ، الا يعني هذا أن هناك شخص كان يضرب سعيد قبل أن يسقط ؟ » «روزاليوسف ـ جمال الدين حسين ١٩٨٩/٨/٧ ـ هل قتلت الموساد الدكتور سعيد بدير؟» .

وفيما بعد سئلت زوجته : «هل نستطيع القول أن الموساد والمخابرات الامريكية هي التي قتلته؟.. فأجابت : ذلك صحيح بنسبة كبيرة لأن من قتله لابد أن تكون له مصلحة في الحد من تفوقه العلمي ، خاصة وأنه رفض العمل مع أمريكا ، أو الاستمرار في المشروع الألماني الذي تموله أمريكا .. لقد كان يعد بحثا خطيرا يكشف من خلاله شفرات الاتصالات بين سفن الفضاء والأقمار الصناعية» .

■■

ولكن الحادث قيد انتحارا ..

ودفنت قصة هامة جدا من قصص أعمال المخابرات الأمريكية في مصر خلال الثمانينات !



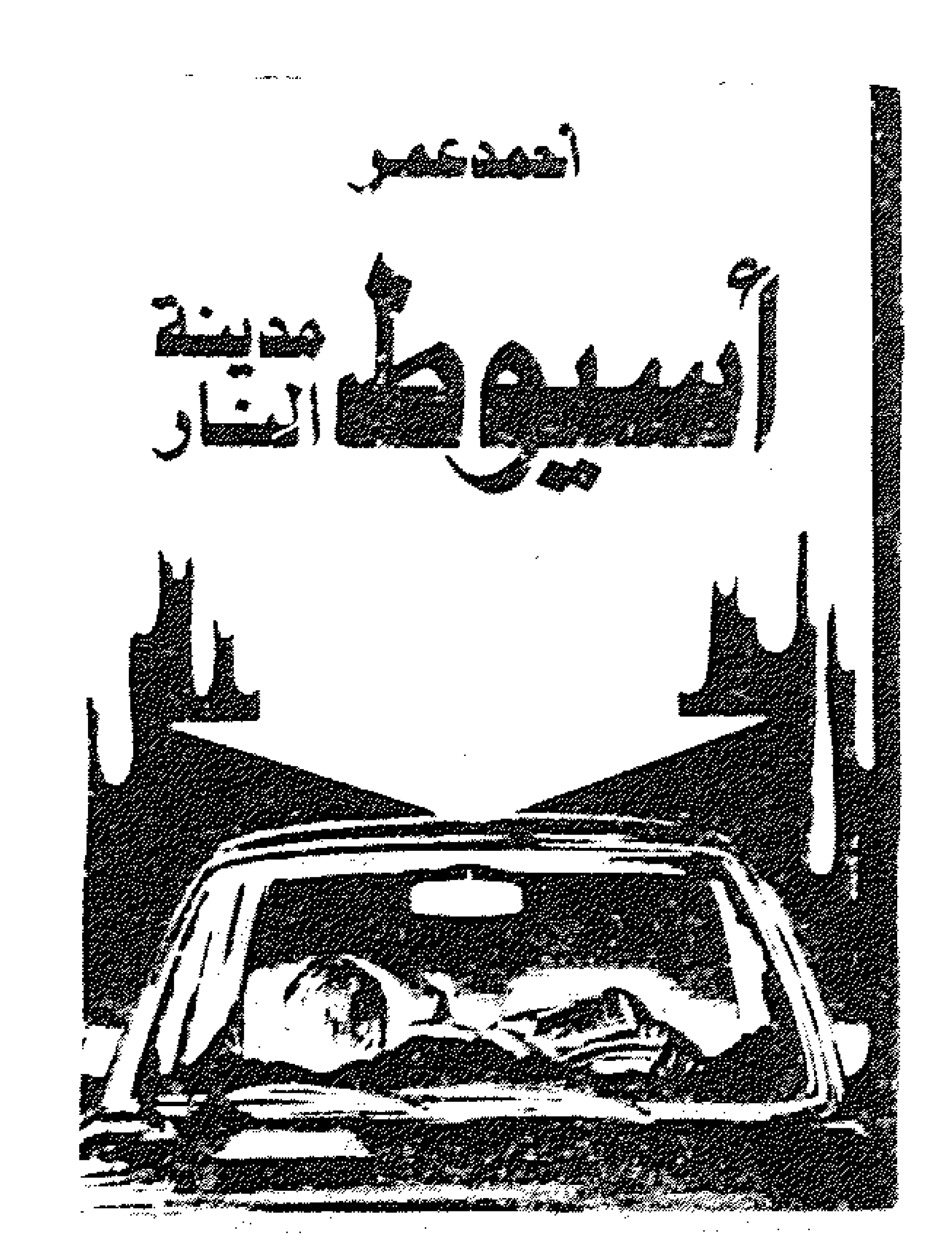
ملف عبد الحليم موسى

للكاتب الصحفى عمرو خفاجى



عمائم وخناجر

للكاتب الصحفى إبراهيم عيسى



أسيوط مدينة النار

أحمد عمر

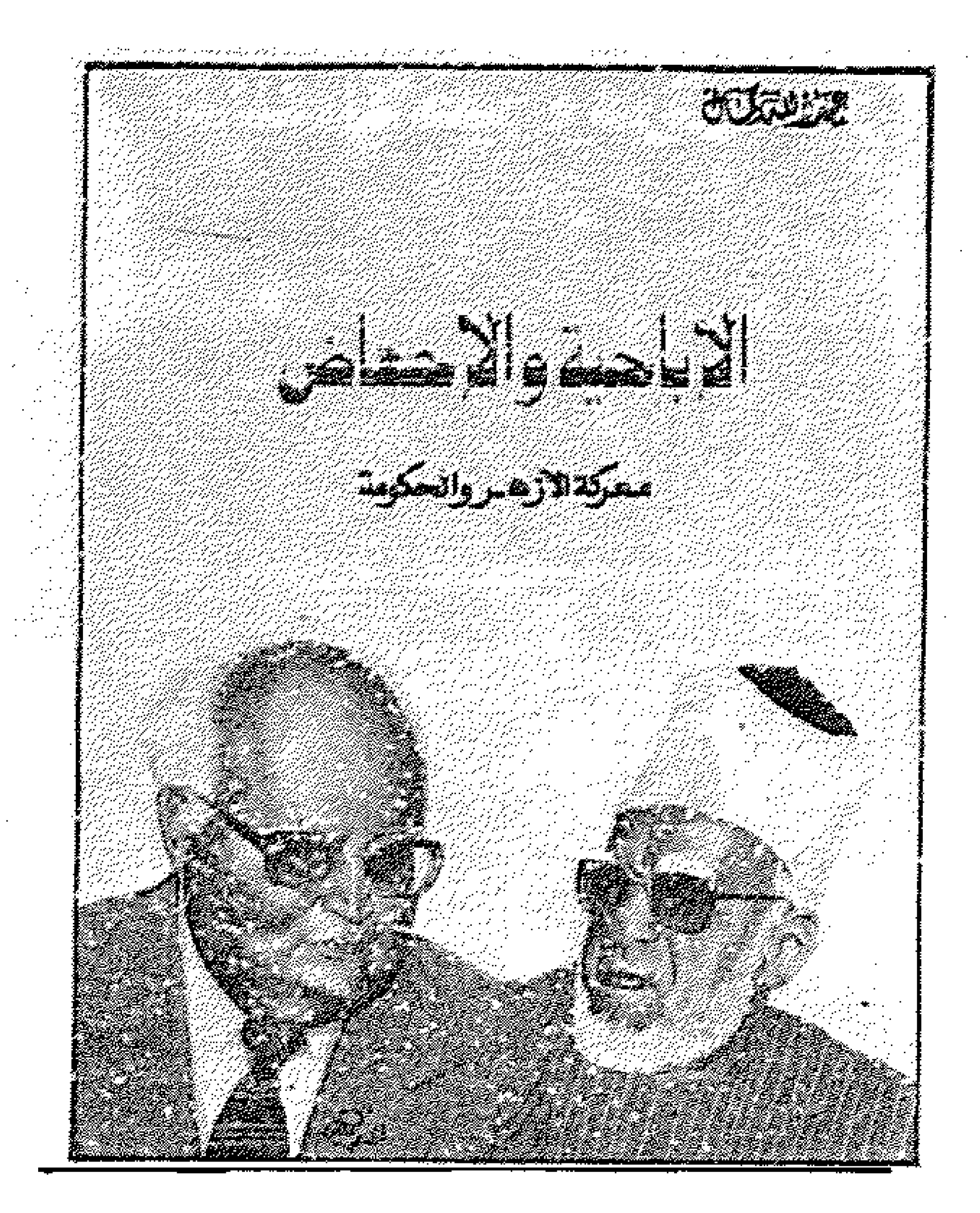


صفوت عبد الغنى

للكاتب الصحفى عبد السلام الواحاتى



فصل الخطاب فى ارتداء الحجاب
للكاتب الصحفى ابراهيم عيسى



الإباحية والإجهاض
عبدالله كمال



كنت قاضيا لحادث المنصة
للدكتور / سمير فاضل



اغتيال رئيس
للكاتب الصحفى عادل حمودة



الملك احمد فؤاد الثانى

للكاتب الصحفى عادل حمودة



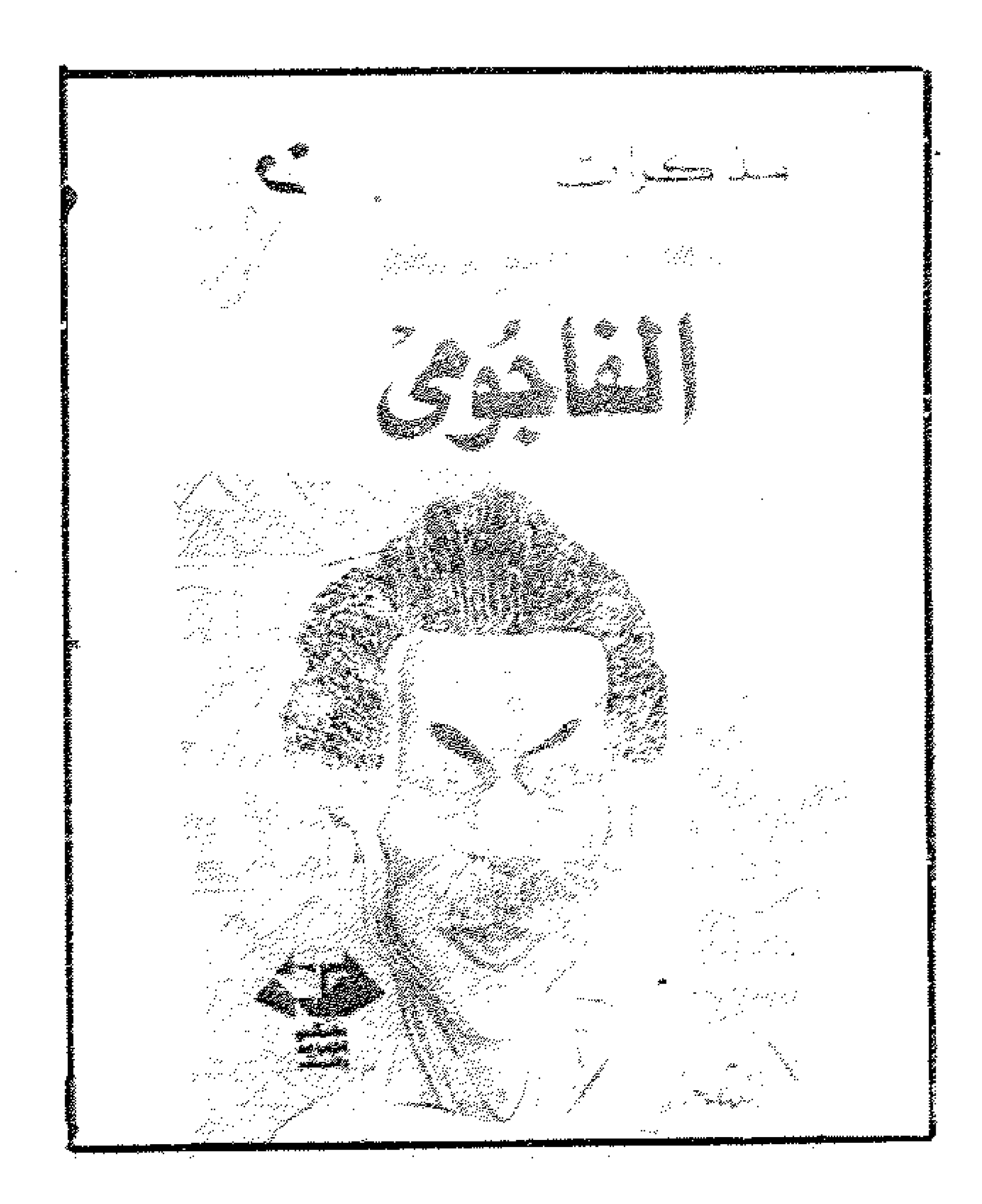
ناريمان

للكاتب الصحفى سمير فراج



اعترافات مصطفى امين

للكاتب الصحفى محمود فوزى



الفاجومى

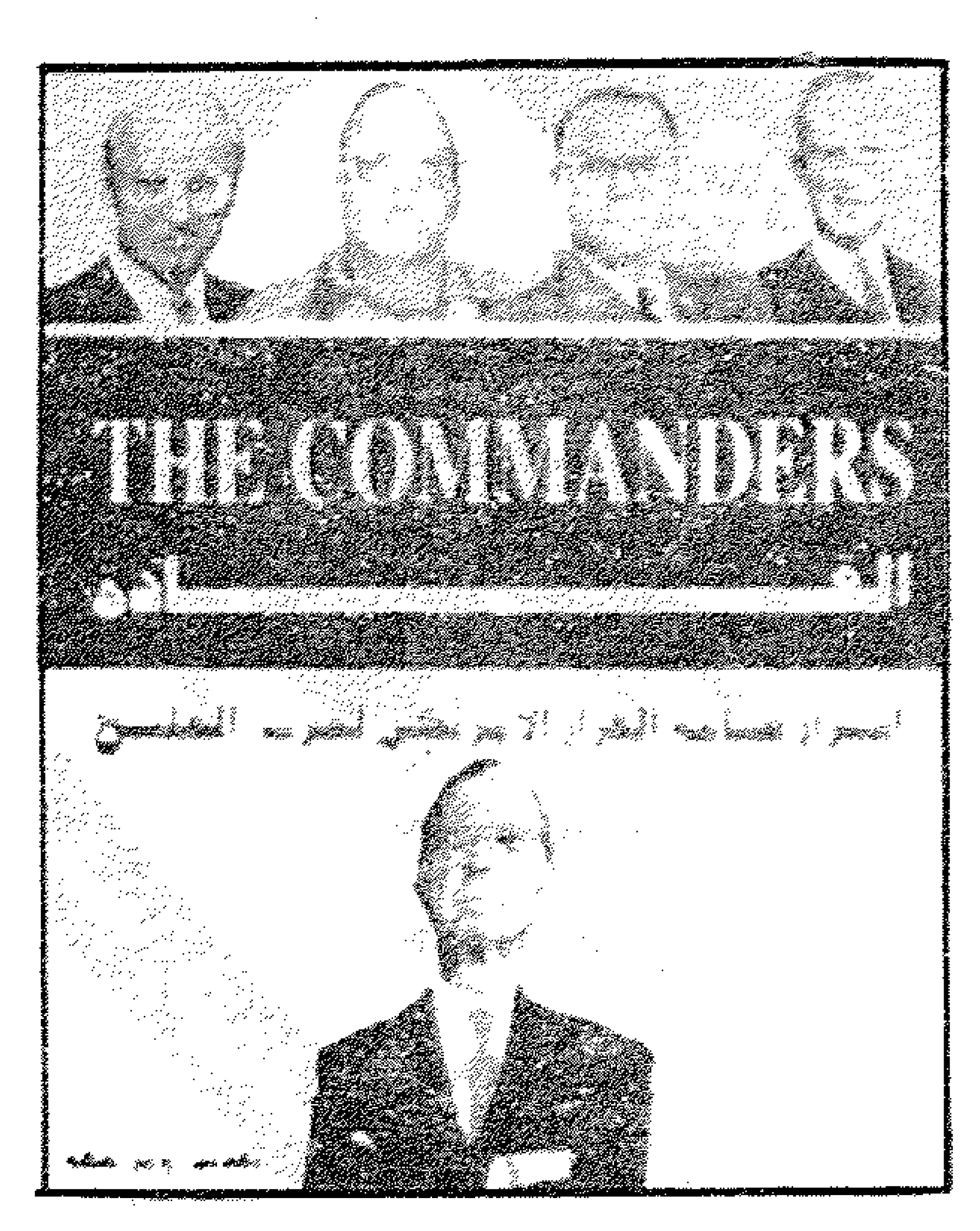
للشاعر احمد فؤاد نجم



تاليف :بيير سالنجر - إريك لوران

ترجمة : د . عربى مخلوف

تحقيق : عادل حمودة



تاليف بوب وودوارد

ترجمة صبحى مشرق

تحقيق : عادل حمودة



للكاتب الصحفى محمود الشربينى

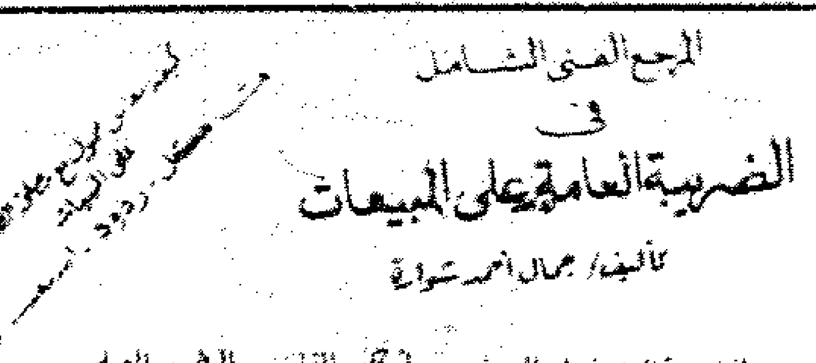


تاليف بيتر استروشكى - كليرهدى



نميرى والعودة لحكم السودان

للكاتب الصحفى محمود فوزى



المرجع الفنى الشامل

فى الضريبة العامة على المبيعات

للاستاذ / جمال شوارة

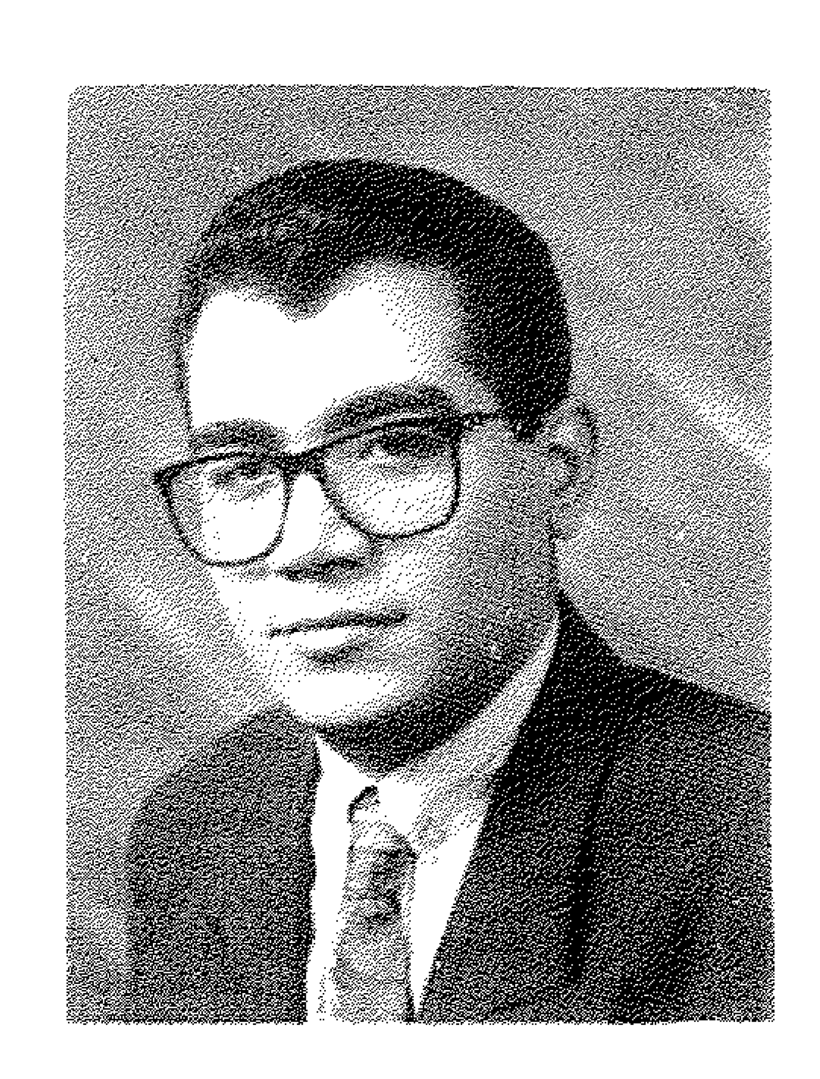


نظام شطارة

للاستاذ / فاروق سالم

رقم الايداع بدار الكتب المصرية
١٩٩٥/١٧٥٢

الترقيم الدولى
I.S.B.N
977 - 5 / 85 - 19 - 5

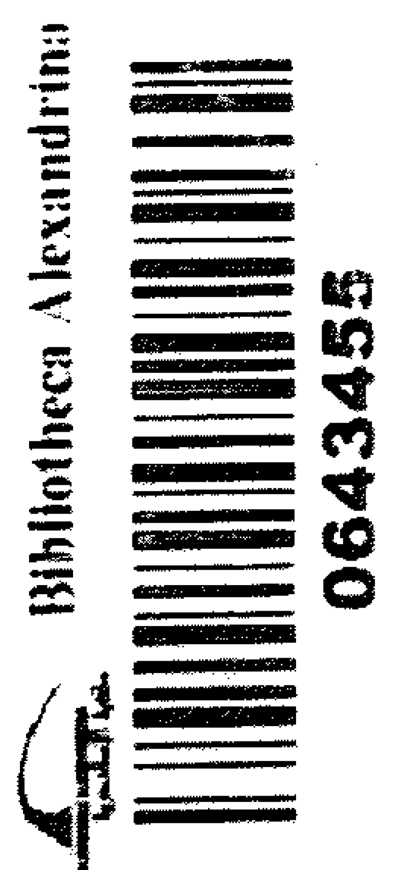


في هذا الكتاب

- (قبل أن تقرأ) تقارير مخابرات عن نوم الصعيدى مع زوجته
- عملية أبناء العاهرة ـ التجسس على الرئيس
- «عملية ڤيڤيان «جواسيس ترمس الشاى»
- العملية المكشوفة ـ جواسيس وشيوخ ومتطرفون
- جاسوس الأسكندرية يطلب تصفية حسابه
- عملية سعيد بدير «اغتيال مستشار الرئيس»

تلك هى فصول الكتاب الجديد للكاتب

عبدالله كمال .. وهو بين يديك الآن





مطابع الأهرام بكورنيش النيل